

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الإبداعية

مكتبة

الأسرة

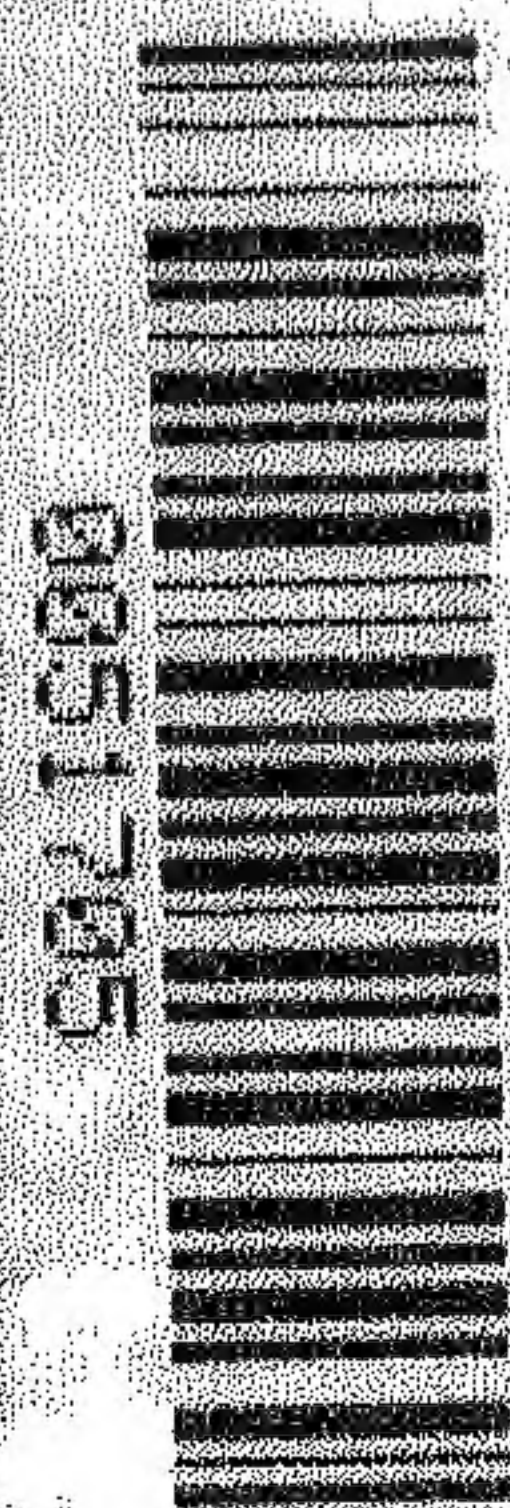
1999

بهاء طاهر

بالأمس حلمت بك



لوحة الفنان : رانيا عبد الجبار



Bibliotheca Alexandrina

بالأمس حلمت بك

بالأمس حلمت بك

بهاء ظاهر



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

بالأمس حلمت بك

تأليف: بهاء طاهر

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان: محمود الهندي

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام،
وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة
من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر
والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار
روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع
سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة
بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهاها شبابنا
صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة
سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل
والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

بالأمس حلمت بك

(١)

أذهب الى العمل في الصباح ، وأعود في المساء للبيت •

يحدث هذا خمسة أيام في الأسبوع ، يحدث هذا في مدينة
أجنبية في الشمال • حين أنزل في الصباح كثيرا ما أجد على
محطة الأتوبيس فتاة شقراء في خدها طابع الحسن ، بمجرد أن
تراني قادمة من بعيد تحول وجهها للناحية الأخرى • لا تنظر
في وجهي أبدا مهما طال وقوفنا •

وعندما أعود الى البيت في المساء أفتح التلفزيون وأغلقه
وأفتح الراديو وأغلقه وأتجول قليلا في الشقة الخالية • أعدل
أوضاع الصور على الحائط والكتب في الأرفف ، أغسل
صحونا ، أكلم نفسي في المرآة قليلا • يتقدم الليل •

وفي معظم الليالي يكلمنى فى التليفون صديقى كمال الذى
يسكن فى مدينة أخرى • يسألنى هل هناك أخبار ؟ أقول
ليست هناك أخبار ، فيشكو أحواله قليلا وأشكو أحوالى
قليلا ، وأخيرا يتنهد ويقول ربما أطلبك غدا •

بعد فترة أنام • غالبا ما يحدث هذا وأنا أقرأ •

فى هذا الأسبوع أهدانى فتحى ، زميلى فى العمل كتابا عن
الصوفية • كنا قلة من العرب نعمل فى مؤسسة عربية فى هذه
المدينة ولكن رئيس المؤسسة ومعظم العاملين فيها كانوا من
الأجانب • فى هذه الظروف أحب فتحى الصوفية • ولما كنت
عائدا الى البيت فى المساء بدأت أقرأ الكتاب فى الأتوبيس •
قرأت قليلا الى أن قال الكاتب ان الروح تغادر الجسد فى بعض
الأحيان وتقوم ببعض الجولات • يحدث ذلك بالليل أثناء النوم
وان لم يكن شرطا • تلتقى الروح أحيانا بأرواح شريرة وأحيانا
بأرواح طيبة ، يحدث اتصال •

شعرت بالخوف وأغلقت الكتاب •

سألنى جارى فى الأتوبيس ما هذه اللغة ؟ وعرفت أنه غريب
مثلى لأن أهل هذا البلد لا يكلمون أحدا • وعندما رددت عليه

قال لغة طريفة • معظم الحروف تكتب تحت السطر • قلت له
 اننى لا أفهم فأمسك الكتاب وفتحه وأشار الى الراء والواو
 والزاي والى الميم والعين والحاء فى أواخر الكلمات • أشرت
 بإقتصار الى الألف والباء والداال والطاء • قال ولكن عندما
 تنظر الى الصفحة تلاحظ أن معظم الحروف تحت السطر • سألته
 عن معنى ذلك فقلب كفيه •

عندما وصلت الى البيت طلبنى كمال فى التليفون مبكرا
 وسألنى عن الأخبار • قلت له عن الجولات التى تقوم بها الروح
 وأن معظم الحروف تكتب تحت السطر • سكت قليلا ثم سألنى
 الجو بارد عندكم ؟ قلت نعم ، فقال عندما يسقط الثلج • ثم
 سألنى فجأة ، كيف تتجول الروح أين تذهب ؟ قلت لا أعرف
 وفى الغالب لن أقرأ الكتاب • قال هل يمكن اذن أن ترسله لى
 بالبريد ؟ فوعدت أن أفعل ذلك •

فى الصباح ذهبت الى العمل • كنت سريعا ونشيطا لأقاوم
 البرد ، ولكن فى محطة الأتوبيس كانت الشقراء هناك وحولت
 وجهها • دهشت من نفسى لأننى أهتم بذلك وقلت ملعون
 أبوها •

كان كتاب الأرواح معى لكى أرسله بالبريد • ولما ركبت
 الأتوبيس قلت لنفسى انه ربما كانت المسألة عادية وربما يجب

أن أقرأ صفحة أو صفحتين لأعرف كيف تتجول الروح وماذا
تفعل ولكنني قاومت ذلك • وبينما كنت في الأتوبيس بدأ الثلج
فجأة • سقط في البداية مثل قصاصات عشوائية متطايرة من
الورق الأبيض ثم أصبح غزيرا وكثيفا وغلف العالم خارج
الأتوبيس بستارة متحركة من نممة بيضاء بلا نهاية • برغم
ذلك نزلت في محطة مكتب البريد • وضعت الكتاب تحت معطفي
حتى لا يبتل وجريت حتى المكتب ولكن في خطوات محسوبة
لكي لا تنزلق قدمي في الثلج الناعم • وقبل أن أدخل المكتب
توقفت لأنفص الثلج عن شعري وعن معطفي • اصطدم بي
شخص من الخلف • التفت ، وكانت هي فتاة المحطة التقت
نظراتنا لشوان وتمتمنا في نفس الوقت بالاعتذار ثم تخطتني
واندفعت الى المكتب • وقفت في طابور قصير أمام شباك
تسجيل الرسائل الذي لم يفتح بعد • وعندما فتح الشباك رأيته
تجلس خلفه بعد أن خلعت جاكيتها الصوفية • كان شعرها
الأصفر مقصوصا حتى رقبتها ومفروقا في الوسط تتدلى منه
خصلة مصففة بعرض الجبين ، وكان ذلك وطابع الحسن في خدها
يعطيان وجهها المستدير الجميل شيئا من الطفولة • وجاء دوري
فسلمتها الكتاب • وتطلعت لشوان بدهشة الى غلافه بزخرفته
المذهبة ثم تجمدت ملامحها مرة أخرى على عادة أهل البلد حين
يعملون • وضعت الكتاب على ميزان وقالت لي عن الثمن •
لم تنظر في وجهي •

كان الثلج ما يزال غزيرا عندما خرجت • فرش الأرصفة
بالفعل وكسا أسقف السيارات الملونة التي كانت تسير ببطء
بغشاء موحد رقيق • لم تكن معي مظلتى فوقفت أحتمى من
الثلج في مدخل مكتب البريد • بدأت أقلق لأننى تأخرت عن
موعد العمل ولكن لم يكن هناك ما أستطيع عمله في هذا
الجو • جاء عبر الطريق رجل يعدو ووقف الى جانبي وهو يلهث
وراح ينفخ الثلج عن ثيابه ، وحين انتهى وضع يديه في جيبى
معطفه وأخذ يزفر الهواء دخانا من فمه وأنفه • كانت السيارات
تمر أمامنا بطيئة ترسم اطاراتها شريطا أسود منقوشا وسط
الثلج في أسفل الطريق ، فاندفع الرجل ورفع ابهامه لعدة
سيارات لكن أحدا لم ينظر اليه • رجع الى المدخل وقد تكوم
عليه ثلج جديد ثم نظر الى بشىء من الغضب وقال أنت أجنبي ،
أليس كذلك ؟ هزرت رأسى فقال عندكم أوغاد بهذا الشكل ؟
لا يتوقعون حتى مع هذا الثلج ؟ قلت عندنا شمس • سألتنى
وما الذى جاء بك الى هنا ؟ أشرت بأصبعى الى السماء
فضحك •

في المكتب قال لى رئيسى الأجنبى وهو يلوح يديه
« شوية • • شوية » ، وكان يعتقد أن هذا يعنى بالعربية أننى
جئت متأخرا • قلت ان هناك ظروفًا تحدث • ولكنه كان سعيدا
لأنه تكلم بالعربية ولأننى فهمت • سألتنى عن صحتى ، هل هى

جيدة ، فقلت نعم • وعندما قابلت فتحي سألتني ان كنت قد
قرأت في الكتاب ، قلت لا • هز رأسه في حزن وقال خسارة ،
روحك شفافة • ثم دفع سبابته في صدري وقال يمكن أن ينبت
بستان في صدرك • قلت له ان صدري مثقل بما فيه الكفاية
فقال في هذه التربة ينبت البستان • دفعت سبابتي في صدره
وقلت يكفي بستان واحد في المكتب ، وانصرفت عنه •

في المساء عدت الى البيت •

كان الثلج على الرصيفين عاليا يمتد بساطا ناعما ولا معا
على جانبي الطريق الأسود المغسول ، وكان يصنع من أغصان
الأشجار العارية من الأوراق تعالين بيضاء متعرجة وينقط أوراق
الأشجار القليلة التي تحتفظ بخضرتها بزهور منيرة • كان هناك
الدفء الذي يعقب الثلج وسكون • في البيت لم أفتح
التليفزيون • نظرت من النافذة وكان الثلج في كل مكان ،
والسيارات المحاذية للرصيف قبا بلا معالم • كان صمت وحزن
فجلست أتأمل حالي •

عندما طلبني كمال في التليفون قلت له ان الثلج قد وصل
فقال لي ان هناك ثلجا يعمر روحه • سألته عن السبب فقال انه
اكتشف أنه مرت عليه عشر سنين وهو يعمل في بنوك هذه
البلدة ، وقد تزوج واحدة من البلد طيبة وجميلة ، وحصل على

الجنسية فيها والناس تحسده لذلك ولكنه تعيس جدا • سألته مرة أخرى عن السبب فقال أليس عمل البنوك نوعا من الربا ؟ هناك شيء قلق في ضميري • قلت له ألا يهتم وأنتى أرسلت له الكتاب في البريد وإذا كانت روحه شفافة فسينبت له بستان في صدره • ضحك وقال حرارتي مرتفعة لأننى تعرضت للبرد وأكلت زبدة بالثوم وأظن أن روحى الآن كثيفة • قلت له خذ حبة أسبرين ونم •

في الصباح لم أذهب الى العمل •

كان ذلك يوم السبت ، لكننى صحوت في نفس الموعد كأيام العمل وأخذت وأنا في الفراش أرتب في ذهني الأشياء التي سأفعلها • سأشتري خبزا وأكلا يكفيني بقية أيام الأسبوع • سأخذ ثيابي للمغسلة • في المساء سأذهب الى السينما • قبل ذلك سأكلم كمال في التليفون لأسأل عن صحته ولأقول له اننى لن أكون في البيت هذا المساء • وعندما استقر رأيى على ذلك نهضت من الفراش •

نظرت من النافذة وكان الثلج كما هو ، لكنه فقد بريقه • ووسط الرصيف كان هناك ممر موحد منقوش بآثار الأقدام يشق الثلج المتصلب ، وتحت الرصيف كانت أكوام أخرى من ثلج موحد كسجها الكناسون في الليل من وسط الطريق ،

وقدرت من طريقة لبس المسارة القليلين ومشيتهم برؤوس محنية
وأيديهم في جيوب معاطفهم أن البرد شديد *

تدثرت جيدا قبل أن أنزل ولكنني كنت أعرف أنه لا علاج
لأهم شيء : الأنف والأذنين ، أحيانا أرفع الكوفية حتى أنفي
لكنني أشعر باختناق وأشعر أيضا بالبرد في رقبتى *
في الظروف العادية يفيد المشي السريع أو الجري ، ولكن هذا
مستحيل مع وجود الثلج على الأرصفة * بالرغم من ذلك كان
لا بد من النزول ، ففوضت أمري الى الله ومن قبيل الاحتياط
لبست جوربين ثقيلين * قررت أن أبدأ بالمغسلة فحملت ثيابي
في كيس ونزلت *

كانت تلك المغسلة محلا للخدمة الذاتية وفيها حوالى عشر
غسالات * تضع نقودك وثيابك وصابونك في الماكينة وتنتظر
الى أن تنتهى أو تنصرف ثم تعود في موعد الانتهاء * وفي المحل
موظفة واحدة تراقب سير الأمور وتبيع الصابون في أكواب
لمن ليس لديه * وعندما دخلت كانت كل الغسالات مشغولة
وهناك سيدة عجوز من أهل البلد تجلس منتظرة على كرسي
والى جوارها كيس ثيابها * جلست أيضا على مقعد خال أنتظر ،
ولكن تيارا خبيثا كان يتسرب من الفتحة الرفيعة بين ضلعتى
الباب الزجاجى فقممت وأخذت أتجول بين الغسالات * رحت
أنظر الى عيونها الزجاجية الدائرية محاولا أن أفهم من طريقة

خض الثياب ودرجة نظافتها أيها أوشكت أن تفرغ • من مكاني
سمعت السيدة العجوز تقول بصوت حاد سأخذ أول غسالة
تنتهي • لم أنظر إليها وواصلت تجولي بحثا عن الدفء •

دخلت لفحة من الهواء البارد ودخل معها رجلان أفريقيان
يحمل أحدهما كيسا مملوءا بالثياب والآخر كيسا فارغا • كانا
يتكلمان لغتهما ويضحكان • توجهتا إلى إحدى الغسالات وكانت
قد توقفت عن العمل بالفعل فأدار أحدهما زراعي التجفيف ووقفا
ينتظران •

مرة أخرى قالت السيدة العجوز بصوتها الحاد المرتفع
سأخذ أول غسالة تنتهي • كانت نحيلة طويلة الرقبة ، لها عينان
ملوئتان خاملتان ، حدقتاهما دائريتان رماديتان في جوف كل
منهما دائرة كستنائية صغيرة • وكان وجهها المعروق يلمع كأنه
مدهون بالزيت •

التفت إليها الأفريقي الذي يحمل الكيس الملآن وقال
لها بلهجة رقيقة حضرت هنا مع صديقي من قبلك يا مدام •
واتفقت مع الأنسة أن آخذ غسالة عندما ينتهي هو • قال هذا
وأشار للفتاة التي كانت تجلس إلى منضدة صغيرة فهزت رأسها
تؤمن على ما قال •

وقفت السيدة وتحركت نحو الفتاة وقد اتسعت عيناها واحتقن وجهها وقالت ما معنى هذا ؟ أنتظر كل هذا الوقت ثم يأتى من يأخذ دورى ، وزنجى أيضا ؟

احمرت عينا الافريقى وتقدم منها خطوة وهو يقول بصوت خفيض :

ـ ماذا تقصدين بذلك ؟

تراجعت خطوة وقالت ـ فى هذا البلد نحن نحترم النظام ، لسنا كالبلاد التى ...

قاطعها وهو ما يزال يقترب منها ـ لا يعنينى نظامك ولا بلدك ، ماذا قلت ؟

تراجعت خطوة أخرى وهى تقول ـ ماذا قلت ؟ ألسـت بالفعل زنجيا ؟

قال وقد أصبح وجهه فى وجهها ـ نعم وأنا فخور بذلك فقولى ماذا تقصدين ؟ قالت لك الآنسة اننى جئت قبلك فما دخل زنجيتى بذلك ؟ قولى ماذا تقصدين •

جلست مكانها فجأة وقالت بصوت يكاد لا يسمع ـ لا شىء •

فجأة مال الافريقى بجذعه الى الخلف وأخذ يقهقه وهو

يقول - اذن فانت لا ينقصك الأدب وحده ولكن الشجاعة
أيضا • الأدب والشجاعة ...

جذبه صديقه من يده وهو ما يزال يقهقه وأخذا مرة أخرى
يتكلمان ويضحكان ، فاتفجرت العجوز بكلمة لا أحد •

- وعلى العموم فأنا لا أحب أن أستعمل هذه الغسالة ؟
قال الافريقى الذى كان يجمع ثيابه من الغسالة ويضعها في
كيسه متظاهرا أنه يبكى - يا للأسف ... سأحزن جدا لذلك •
نظرت السيدة للفتاة التى تجلس خلف المنضدة وقالت
لها - أرايت ؟

قالت الفتاة وهى تتطلع للسقف - لا شأن لى بذلك •

التفتت العجوز تبحث عن شخص آخر تكلمه لكنها لم تجد
سواى فأدارت وجهها نحو الباب الزجاجى وهى تتمتم وتهز
رأسها - ماذا جرى لهذا البلد ؟ ماذا جرى لهذا البلد ؟

بعد أن انتهيت من غسل ثيابى ، خرجت متجها الى المتجر
لأشتري أشياء الأسبوع • كان وجهى ملتها عندما خرجت من
المغسلة ، ومضت مدة قبل أن أشعر بالبرد وأضطر الى ربط
الكوفية حول اتقى •

وفى المتجر بينما كنت أجمع علب الصلصة والشاي والسكر

قابلت فتاة مكتب البريد • كانت تدفع أمامها عربة فيها باقة ورد
وعلب صابون وخضراوات • ولما التقينا تطلعت الى وعلى فمها
ابتسامة مترددة ، فأدبرت وجهي •

في البيت طلبت كمال في التليفون • سألته عن صحته فقال
ان الحرارة هبطت ولكنه مازال يشعر بدوار • سألته ان كان
الكتاب قد وصله فقال انه تسلمه الآن وسيعيده الى بعد أن
يقراه • قلت له اننى لا أحتاج الى الكتاب ولا الى أى أرواح
طيبة أو شريرة ويكفى أشرار البشر • حكيت له ما دار في
المفصلة ، وكنت منفعلا بعض الشيء لكنه رد بهدوء وقال
ما أهمية ذلك ؟ أنا أعيش هنا من سنين وأعرف كيف ينظر أهل
البلد الى الأجانب لكننى لا أهتم بذلك أبدا • اعتبر أننى
أعيش في صحراء وأن شقتى خيمة • خارج العمل لا أتعامل مع
أحد أبدا ولا اعتبر أن هناك بشرا • هذا هو الحل المثالى
معهم وليست هذه هى المشكلة • قلت له اذن ما هى المشكلة ؟
فقال نحن • المشكلة فى داخلنا لكنى لا أعرفها • أبحث عنها طول
الوقت لكنى لا أعرفها • هل تعرف فى تفسير الأحلام ؟ قلت
أجرب • قال بالأمس حلمت أننى قابلت معاوية بن أبى سفيان
وأننى كنت أتوسط عنده للصلح مع سيدنا الحسين فغضب
معاوية وقال ضعوه فى السجن مع طه حسين ، لكننى استطعت
أن أهرب وركبت تاكسى فوجدت نفسى فى ميدان العتبة • قلت
لكمال ان الخلاف كان مع زيد وليس مع معاوية • فقال لى

بشيء من الغضب هو حلم أم حصّة تاريخ ؟ ماذا تفهم منه ؟
 فكرت لكننى لم أفهم شيئا • قلت له ماذا كنت تفعل قبل الحلم ؟
 قال كنت أتمرّن على الآلة الكاتبة الأفرنجية • قلت هل يلزم
 هذا لعملك ؟ قال لا ، ولكنه شيء مفيد • قلت له انتى لا أستطيع
 أن أفسر الحلم فقال لا يهم ، هل عندك أخبار ؟ قلت لا •
 فى المساء ذهبت الى السينما • كان الفيلم لاترافياتا •
 وقفت فى المدخل أنتظر خروج الحفلة وأحتمى بدفء الزحام •
 كنت اتفرّج على صور الفيلم ، أرى كيف تصور المخرج
 عادة الكاميليا • وكانت كما أحلم بها نحيلة ، جميلة ، ذات
 عينيّن سوداوين واسعتين • سمعت صوتا من خلفى هل تسمح ؟
 التفت وكانت هى مرة أخرى بطابع الحسن فى خدها • كانت
 تمسك سيجارة وتقربها من فمها وقالت هل تسمح أن تشعل
 لى السيجارة ، كانت تلبس بلوزة بيضاء من الصوف الثقيل
 عالية الرقبة وينطلونا وبدا وجهها الخالى من المساحيق متوردا
 جدا ومرتبكا • كانت طفلة أكثر من أى وقت وبدا لى غريبا
 أنها تمسك سيجارة • ابتسمت لها وأنا أخرج الولاة فقالت
 يبدو أننا نلتقى فى كل مكان • قلت المدينة صغيرة • قالت اسمى
 آن ميري • قلت لها عن اسمى ، ابتسمت وهى تحرك السيجارة
 بين أصابعها بسرعة • وقالت قررت أن أواجهك • قلت لها
 بدهشة هل نحن فى حرب ؟ فقالت لا ، لا تهتم • هل ستدخل
 الفيلم ؟ قلت نعم • قالت تحب لاترافياتا ؟ قلت اعتدت أن

أسمعها في أوبرا القاهرة • سألت في القاهرة أوبرا ؟ قلت كان •
استمرت تحرك السيارة بين أصابعها في عصبية ثم قالت هل
لديك مائع أن تتكلم قليلا بعد الفيلم ؟ قلت سأكون هنا •

بعد الفيلم كانت موسيقى فيردى تملأني وذلك الحزن
الرقيق الذي عرفته من أول مرة قرأت فيها عادة الكاميليا والذي
يعاودني كلما شاهدت قصتها • وكانت مع آن ماري إحدى
صديقاتها عندما خرجت من الفيلم • عرفتني بها فتطلعت الى
بفضول ثم صافحتني وانصرفت • سرنا في الطريق البارد الذي
كاد يصبح خاليا بعد أن تفرق الخارجون من الفيلم • وكانت
عادة الكاميليا لا تزال تملأني •

قالت تبدو حزيننا •

قلت نعم •

فقلت وأنا أيضا • تذكرت بيتا من الشعر يقوله هاملت
عن الممثل الذي يبكي على مأساة بطلته ، من تكون له ومن
يكون لها حتى يبكي عليها ؟ ثم راحت تهز رأسها وتقول : من
تكون عادة الكاميليا لنا ومن تكون لها حتى نحزن عليها كل
هذا الحزن ؟

قلت - أكثر حقيقية من الناس الحقيقيين •

وغلبنى البرد فسألتها - هل تقصدين مكانا محددًا ؟

• قالت - لا •

فجلسنا فى أقرب مقهى •

كنا نجلس متقابلين الى منضدة صغيرة وأمامنا كوب
الشاي الساخن فقلت لها وأنا ابتسم - ها أنت تواجهيننى ،
فما هى المسألة ؟

ابتسمت هى أيضا وقالت - كان الأمر يحتاج الى شيء
من الشجاعة هذا كل شيء • لم أعود أن أتكلم الى الأجانب •
ثم أضافت بسرعة أقصد الأشخاص الذين لا أعرفهم •

ضحكت ضحكة صغيرة وقلت - أنا لست خجلا لأنى
أجنبى •

فانحنت على كوب الشاي وقد احمر وجهها وقالت -
بالطبع • بالطبع • ولماذا تخجل ؟ ثم رفعت رأسها ونظرت
الى وازداد وجهها احمرارا وهى تقول - أرجوك ألا تسيء
فهمى • كان أبى قسا بروتستانتيا وقد علمنا أن نحب المسيح
وأن نحب كل الناس فى المسيح • أنا • أنا لست كالأخرين •

قلت - هذا واضح • ولكن ألا تهتمين قليلا لأن هؤلاء

الزبائن يراقبونك وأنت تجلسين مع رجل أجنبي ، ورجل ملون
أيضا ؟

قالت وهي ما تزال تثبت عينيها الزرقاوين في وجهي :
- مطلقا • ثم أضافت بصوت خافت - وهذا ما يحيرني •
- ما هو ؟

- شيء يحدث • لا أستطيع أن أصفه • ربما تستطيع أن
تساعدني •

سكت وبدأت أرشف الشاي منتظرا أن تواصل الحديث
ولكنها توقفت عن الكلام أيضا وبدأت تشرب الشاي في صمت
وهي تثبت نظرتها في المنضدة التي تفصل بيننا •

ثم قالت فجأة بصوت خفيض وكأنها تبذل جهدا للكلام -
أرجوك ان شئت أن تحدثني عن نفسك • من أنت ؟ من أين ؟
أنا كما ترى من هذا البلد • أعمل في مكتب البريد • مات أبي
وأعيش مع أمي • أحب السينما وأحب الموسيقى والقراءة •
فمن أنت ؟ ماذا تعمل هنا ؟

قلت لها من أنا وماذا أعمل هنا •

قالت - وذلك الكتاب الذي أرسلته من عندي بالبريد •
ذلك الكتاب ذو الغلاف المزخرف ، ما هو ؟

— كتاب عن الصوفية • صعب أن أشرح لك • أناس
يعتقدون أن القلب هو الذى يفهم لا العقل • يمرنون أرواحهم
لكى تصفو قلوبهم •

— مثل الزهبان ؟

— ليس تماما • ولكنى فى الواقع لا أستطيع أن أشرح •

لم أقرأ كتبهم ولا أفهمهم كثيرا •

— وأنت ما هى أفكارك ؟

• سكت

استأنفت هى الكلام وقالت -- فى وقت من الأوقات تمنيت
أن أعتنق الكاثوليكية وأن أصبح راهبة • أحببت أيضا القديس
فرانسوا الأسيسى الذى كان يحب الفقراء والمرضى • فى الواقع
أنى احتفظ بصورته فى غرفتى رغم أن أمى لا تحب ذلك •

ثم رجعت للخلف فجأة وقالت — هذا العالم يمرضنى •
لا فائدة ، حاول ناس كثيرون ولكن لا فائدة • نفس الغباء فى
كل العصور • نفس الكراهية ونفس الكذب ونفس التعاسة •
فكرت أيضا أن أذهب الى افريقيا ، ربما أساعد انسانا واحدا ،
فكرت ••

توقفت فجأة عن الكلام •

طفرت حبات من العرق في جبينها ، فمسحتها بيدها
ووضعت يدها على عينيها وقالت وهي مغمضة العينين - معذرة •
أشعر أنى ضايقتك • رأيت وجهك يتغير عندما سألتك ما هي
أفكارك فأرجوك أن تسامحنى ، لا أريد أن أتطفل عليك •

قلت - لا أهمية لذلك • في الواقع كانت عندي أفكار
آن ماري • قلت لها عن اسمي • ابتسمت وهي تحرك السيجارة
بين أصابعها ، بسرعة وقالت قررت أن أواجهك • قلت لها
فيما مضى ، لكنى الآن نسيتها • في بلدي لم يكن أحد يحتاج
إليها ولا الى فقررت أن أنساها • نسيت أشياء كثيرة • ولكنك
قلت اننى يمكن أن أساعدك ، كيف يمكن أن أساعدك ؟ وقلت
لى شيئا عنى يحيرك ، ما هو ؟ رفعت يدها من على عينيها وظلت
تنظر الى فترة ورموشها تختلج ثم قالت بلهجة عادية • هذا
الشيء هو أنى أراك كثيرا جدا • فى كل يوم تقريبا مرة
أو مرتين • قلت لها - وما الغريب فى ذلك ؟ ما الغريب اذا كنا
نسكن فى نفس الحى وتركب نفس الأتوبيس فى نفس الموعد ؟

قالت باللهجة العادية ذاتها - لا شيء • غير أننى أراك أيضا
عندما لا أراك • أشعر قبل أن أقابلك بأنك موجود وعندما

أرفع عيني أجلك هناك • أحيانا أتخيل هذا فحسب ولا تكون
هناك ولكنى أكاد ألمسك •

قلت وأنا أحاول أن ابتسم — ربما كنت تحبيننى ؟

فقلت دون أن تبتسم — لا •

ثم حولت عينيها وقالت — سامحنى • فى الواقع انى
أكرهك •

ثم نظرت الى • كان وجهها محتقنا ، وعيناها محمرتين وقد
غادر ملامحها كل جمال •

تطلعت الى عينيها • وكانت بالفعل تكرهنى •

(٢)

في الأسبوع التالي أيضا ذهبت الى العمل وعدت الى البيت •

هبط ثلج جديد واشتد البرد •

ذهبت مرة الى فتحى فى مكتبه وقلت له هذه الحياة تحيرنى فأرجوك أن تعلمنى شيئاً • قال كيف أعلمك وأنا لا أعلم ؟ افعل مثلى • دع روحك تتفتح • يوما ستكتشف أنت وسأكتشف أنا خلف هذه الصحراء تلك الأزهار الموعودة التى لا حد لجمالها •

قلت له هذا الكلام يخيفنى ولا يعزىنى • أريد شيئاً محدداً • كيف وصلت أنت الى هذا التوازن والسلام ؟ قال ألغيت ارادتى وسلمتها لصاحب الأمر • ولم يكن ممكناً أن نواصل الحديث •

كلمنى كمال فى التليفون عدة مرات • لم يذكر شيئاً عن الكتاب لكنه قال لى ذات مرة انه قرر أن يستقيل من البنك • وفى هذه الفترة كثرت الأحلام عند كمال • كان هناك شيء يتكرر بكثرة فى أحلامه : انه يتعلم عزف الكمان • فى أحد الأحلام ضاع منه القوس الذى يعزف به واضطر أن يستخدم

مسطرة ليواصل العزف • وفي حلم آخر كانت هناك لجنة
ستمتحنه ولكن زجاجة الدواء الذي يساعد على العزف انكسرت
وكانت جميع الصيدليات مغلقة فأراد أن يعتذر للجنة ولكنه لم
يجد الحذاء فدفعوه الى المسرح دون حذاء ، وهكذا •

وفي نهاية الأسبوع دعتنى آن مارى الى بيتها لترد لى
دعوة الشاى كما قالت • كنا قد التقينا فى الصباح عدة مرات
على محطة الأتوبيس وتبادلنا الحديث • طلبت منى أن أغفر
لها صراحتها فى ذلك اليوم • طلبت أن أنظر للمسألة على أنها
تعانى من أزمة نفسية لا علاقة لها بى • والواقع أنها كانت
تحب واحدا من مواطنيها ولكنه تركها منذ شهر • سافر الى
الخارج بعد أن كانا قد اتفقا على الزواج ومن هناك بعث اليها
اعتذارا • قالت انه كان يمكن ألا يعدها بالزواج وأنها كانت
ستحبه وتبقى معه برغم ذلك • ولكن أن يعد وعدا لم يرغبه
عليه أحد ثم ينكثه فهذا فى الواقع هو ما يمرضها • وهى تكاد
تكون سعيدة لأنها تخلصت من شخص بهذه الأخلاق فى الوقت
المناسب • ثم تكلمت عنى • قالت انها تحاول أن تنظر للمسألة
بمنتهى الموضوعية • كأنها لا تتكلم عنى أو عنها ولكن عن
بشر آخرين ، وترجو أن أسامحها • هل تكرهنى لأنها رأتنى
فى هذه الظروف ؟ هل أذكرها بذلك الشخص الآخر الذى
أصبحت الآن تكرهه ؟ ولماذا ؟ هل لأن فى شيئا يشبهه ؟

ما هو ؟ هل لأنه سافر للخارج مثلا ؟ هي تعرف أن المسألة معقدة جدا وستفهم تماما اذا رفضت أن أساعدها بل وستعتذر لى وتشكرنى لأتنى وافقت أن أستمع اليها • أما ان شئت أن أساعدها فسيكون هذا كرما بالغا منى وستقدر لى هذا الجميل •

فى نهاية الأسبوع التقينا على محطة الأتوبيس • كانت سحب داكنة تغطى السماء وتجعل النهار معتما وكان الثلج راكدا على الأرصفة وشرفات البيوت • وجاءت آن مارى فى الموعد ترتدى كالعادة بنطلونا وجاكتة بيضاء من الصوف تضع يديها فى جيبيها ، وتربط كوفية حول رقبتها • لم أرها أبدا تلبس معظما أو فستانا • وبدت وهى تتقدم منى بخطواتها المترددة نحيلة وضئيلة وشعرت نحوها بأشفاق غريب •

قادتني الى بيتها • كانت تسكن عمارة قديمة ذات شرفات من حديد مقوس مشغول • كثيرا ما مررت أمامها فى الصيف ووقفت أتأمل شرفاتها الرقيقة وهى موشاة بزرع أخضر وزهور حمراء كبيرة • الآن كانت الشرفات عارية وقد تكومت نقط من الثلج على الأجزاء المحدبة من قضبان الحديد المقوس المتوازية •

لم نكد نقول شيئا حتى وصلنا الى شقتها ، ولكنها ونحن

نـصـعد السلم غـمـغـمت بإعتذار لأنه ليس هناك مصعد وهى تسكن
 فى الدور الثالث • فتحت الباب بمفتاحها وفى مدخل الشقة كانت
 هناك ستارة بيضاء ، عبرناها فدخلنا الى صالة فيها مناضد صغيرة
 تعلوها دى وتماثيل خشبية صغيرة على مفارش بيضاء
 مطرزة • كانت المفارش ناصعة البياض والمناضد الصغيرة
 والتماثيل التى تعلوها موضوعة فى أبعاد متناسقة تماما وسط
 زهور عفية ومعتنى بها • كانت زهور قرنفل كبيرة بيضاء
 وحمراء ووردية • وعلى جانبى الصالة كان هناك دولابان
 خشبيان بضلف زجاجية لها ستائر من الداتيللا ، ويزدحمان
 بالكتب • ووسط الدولابين بالضبط مائدة خشبية مستطيلة
 تجلس اليها سيدة ذات شعر أبيض معقوص تلبس نظارة كبيرة
 العدسات وتقرأ مجلة • قالت آن مارى هذه أمى ، ثم تقدمت
 منها وقبلتها فى جبينها وقالت بصوت عال هذا هو • هزت
 رأسها وابتسمت وقالت صباح الخير يا سيدى • فقلت صباح
 الخير • قالت آن مارى ارفع صوتك انها لا تسمع جيدا •
 جلست على كرسى بجوارها وظللت ساكتا بينما كانت هى تحنى
 رأسها وتتطلع الى مبتسمة بعينها الزرقاوين الصافيتين اللتين
 ورثتهما آن مارى • تطلعت الى طويلا من خلف العدستين
 الكبيرتين المنزلقتين على أنفها ، ثم قالت من افريقيا ؟ هزت
 رأسى فأشارت بيدها الى قناعين سوداوين مرشوقين فى الجائط
 يتوسطهما صليب خشبى وقالت أحب النحت الافريقى • ضمت

أصابعها البيضاء المتغضنة وأخذت تهز قبضتها وهي تقول فيه القوة ، ثم فتحت راحتها وحركت يدها حركة متموجة وقالت وفيه أيضا رشاقة ونعومة • ثم قالت من أين في افريقيا ؟ قلت بصوت مرتفع أنا من مصر • رفعت حاجبيها مندهشة قليلا وقالت مصر ؟ تمنيت دائما أن أزورها • ذهب زوجي الى مصر سنة ... في سنة ، لا أذكر • لم تكن قد تزوجنا بعد ولكني ما زلت محتفظة بالصور • اعتمدت يديها على المائدة وهمت بالنهوض ولكنها توقفت لحظة ولكني أذكر أن زوجي قال لي انهم في مصر يجيدون السحر • قلت بدهشة السحر ؟ فهزت رأسها ، قلت وأنا أحاول أن أضحك ، ربما كان ذلك أيام سيدنا موسى • فقالت وهي ما تزال تعتمد يديها على المائدة شاهد زوجي أشياء ، فقلت ربما • نهضت من مكانها بصعوبة وفي هذه اللحظة عادت آن ماري تحمل ثلاثة أكواب من الشاي على صينية وقالت بصوت مرتفع يكفي هذا يا ماما • فقالت أمها بنوع من الاحتجاج ولكنني أريد أن يرى هذا السيد الصور • وسارت يبطء محنية الظهر الى أحد الدواليب وفتحته • قالت آن ماري باعتذار وهي تضع أكواب الشاي على المائدة انها لا تخرج كثيرا وعندما ترى أحدا لا تكف عن الكلام • فقلت لا يضايقني هذا • وكانت أمها الآن تكلم نفسها وتقول أين ذهب ؟ أين يمكن أن يكون قد ذهب ؟ كان دائما هنا •

حصلت آن ماري كوب الشاي الموضوع في حامل معدني

وقالت تعال • لنذهب الى غرفتي • فحملت كوبي وتبعتها •

كانت غرفتها صغيرة ومرتبّة ، أثاثها حديث وبسيط على عكس الصالة وتشغل الحائط أرفف عليها كتب كثيرة • وكانت تتوسط أحد الأرفف زهرية طويلة من الكريستال فيها زهرة واحدة بيضاء كبيرة • وعلى الحائط كانت صور القديس فرانسوا برأسه الحليق في الوسط • وكان اللون الأبيض في كل مكان ، المفارش وغطاء السرير وستائر النافذة الداتيل • وحين فتحت آن ماري ستارة النافذة ظهرت في الخارج شجرة أرز تكوم الثلج على غصونها العريضة الخضراء التي تشبه كهفًا مبسوطة ، ومن حولها أشجار تتشابك غصونها العارية المطلية بالجليد • جلست آن ماري على كرسي صغير بجانب النافذة ووضعت راحتيها بين ركبتيها المضمومتين وأخذت تتطلع للخارج •

قلت لها وكنت ما أزال واقفا عند باب الغرفة وكوب الشاي في يدي ، المنظر جميل من نافذتك • تطلعت الى مبتسمة وقالت شكرا ، لم لا تجلس ؟ وأشارت الى مقعد مستدير بدون مسند أمام مرآة صغيرة ، جلست تكاد ركبتي تصطدم بركبتها ورحنا تتطلع من النافذة ونحن نرشف الشاي •

قالت دون أن تنظر في وجهي بالأمس حملت بك •

وقالت تعال • لنذهب الى غرفتي •

قلت أنا آسف ، ثم ضحكت •

قالت وهي تسدد الى نظرة ثابتة لماذا أنت آسف
ولماذا تضحك ؟

— ما الذى يمكن أن أقوله عندما تخبرينى بهذه اللهجة
الحزينة أنك بالأمس حلمت بى ؟

هزت رأسها وقالت أول أمس أيضا حلمت بك •
حلمت صقرا كبيرا يضرب نافذتى بجناحيه ويتطلع الى بغضب
وهو ينقر الزجاج محاولا أن ينفذ منه ثم جئت أنت فاختضعتك
الصقر بجناحيه • صحت من النوم وكنت أبكى •

لم أضحك ونكست رأسى •

قالت بهدوء — ماذا تفعل لكى يحدث هذا ؟

رفعت رأسى بدهشة وأنا أكرر السؤال ماذا أفعل لكى
يحدث هذا ؟

— نعم •

— أنت تعنين هذا السؤال ؟ تعتقدين أننى يمكن أن أفعل
شيئا يجعلك تحلمين بى ؟

ضحكت آن مارى بعصية ومدت يدها الى فأخذت كوب
الشاي الفارغ ثم قامت وخرجت •

خارج النافذة حط غراب على شجرة الأرز •

أخذ يطير متخطيا بين الغصون وهو يبحث عن غصن
لا يضره الثلج ، وحين وجده فرد جناحي حداده الأبدى وراح
ينفضهما ثم انكمش •

رجعت آن ماري وأغلقت باب الغرفة وقت بجانبى ثم
قالت فيم تفكر ؟

ـ لو قلت لك ستضحكين •

ـ اذن أرجوك قل • أتمنى أن أضحك •

ـ يحزنتى أن هذا الغراب على تلك الشجرة تيمس •
ويحزنتى أن يكره الناس في العالم كله الغراب مع أنتى لم أسمع
أنه آذى انسانا •

ـ تحزن للغراب وتحزن لغادة الكاميليا • ألا تهتم بأمرا
نحن البشر من لحم ودم ؟

ـ كففت عن ذلك منذ زمن •

ـ أما أنا فيحزنتى أن تنهزم في هذا العالم الرقة
والحساسية وأن ينتصر الشر • يحزنتى أن تموت غادة الكاميليا
لأنها أحبت وضحت ولكن يحزنتى أيضا أن أعلم أن في هذه
الدنيا جوعى فقراء لا يجدون طعاما ومرضى فقراء لا يجدون

دواء ، أو اذا وجدوا الدواء فان الموت يخطفهم دون مبرر •
يحزننى الموت بصفة خاصة •

— وكل ذلك كان يحزننى ذات يوم وغيره كثير ••

— ومتى فقدت اهتمامك بهذا كله ؟

— لا أذكر بالضبط • ربما منذ جئت الى هنا • ربما قبل
ذلك بقليل وعندها قررت أن آتى هنا •

— واذن فأنت الآن بهم تبشر ، بالفناء ، بالعدم ؟

— ولا حتى بهذا •

ظلت تتطلع فترة من النافذة فى صمت ، ثم قالت بلهجة
مختلفة وهى تشير الى شجرة الأرز •

— أظن هذه الشجرة فى بلدكم ؟

فقلت — لا ، ولكن فى ناحيتنا •

قالت — بعد اذنك • يتعبنى نور النهار الكابى الذى
يشبه الليل • أفضل الكهرباء •

ثم أسدلت الستار فأصبحت الغرفة شبه معتمة ، لكنها
ظلت تقف بجانبى ووجهها الى النافذة ثم قالت بصوت خافت •

— هل أنت واثق من أنك لا تستطيع مساعدتى ؟

مددت يدي وأمسكت يدها القريبة مني • كانت باردة
كالثلج فأخذتها بين راحتي • انحنيت وركعت على ركبتيهما بحيث
أصبحت تواجهني وقالت بصوت خافت - من أنت ؟ وما معنى
هذه الأحلام ؟ ولماذا تلازمني ؟

قلت : من أنت ولماذا ظهرت في حياتي وماذا تريدني
منى ؟

اقتربت منى وهي تزحف على ركبتيهما ثم قبلتني في جبیني •
كانت شفتها باردة كالثلج فأمسكتها من كتفها وقلت لیتني
أستطيع أن أساعدك • لیتني أستطيع أن أساعد نفسي •

ولكنها فجأة وبحركة سريعة جدا وهي ما تزال راكعة
أمامي خلعت بلوزتها الصوفية وخلعت حمالة صدرها ودفعت
نفسها في صدري وهي تحيطني بذراغين متشنجتين وقالت -
هيا ، ان كان هذا هو ما تريد فيها • ها هو السرير •

أبعدت ذراعيها عني بقوة وخرج صوتي مختنقا وأنا
أقول ، لا ، ليس هذا هو ما أريد ربما تكونين جميلة • أنت
بالفعل جميلة ، ولكني لم أرك أبدا أكثر من طفلة •

ثم قمت والتقطت بلوزتها الساقطة على الأرض
وأعطيتها لها •

تناولتها من يدي وقامت فجلست على طرف السرير ثم

كومتها وأخفت فيها وجهها وأخذت تبكي بعنف وجسمها كله يرتعش وهي تردد - اذن قل لي • قل لي أرجوك ماذا تريد ؟ ماذا تريد ؟

- ما أريده مستحيل •

ما هو ؟

- أن يكون العالم غير ما هو • والناس غير ما هم • قلت لك ليست عندي أفكار ولكن عندي أحلام مستحيلة •

- وما شأني أنا بذلك ؟ لماذا أتعذب أنا ؟

- وكيف أفهم أنا ؟ ما الذي أستطيعه ؟ قولي لي وسأفعله أتخمين أن أترك هذا الحي ؟ هذه البلدة ؟

- هل سيساعدني ذلك •

- وكيف أعرف ؟ ان كنت لا أفهم كيف أساعد نفسي ، فمن أين لي أن أفهم كيف أساعدك ؟

مدت ذراعيها تبحث عن أكمام بلوزتها ثم لبستها ببطء وظلت لفترة تجلس على طرف السرير صامتة متهدلة الكتفين ثم قالت بصوت خفيض - الآن فهمت كل شيء • نعم الآن أرى كل شيء ، ولكن ما أشد هذا الحزن •

- ماذا فهمت ؟

قالت بنفس الصوت الخفيض – هذا سرى •
ثم مدت يدها وهى ما تزال جالسة وضغطت زرا بجانب
السريير فأضاء الغرفة نور كالمفاجأة •

تطلعت الى وقالت – أرجوك أن تسامحنى •
ثم حاولت أن تبسم وهى تقول – فى كل مرة أقابلك
أضطر أن أعتذر لك • ولكن أعدك أن هذا لن يحدث
بعد الآن •

كانت عيناها محقتتين ولكن وجهها كان شاحبا جدا •
وعندما خرجنا من الغرفة كانت أمها تجلس فى مكانها الى
المائدة وهى تقلب فى البوم سميك الأوراق ولما رأتنى قالت
بلهفة تعال يا سيد ، وجدت الصور •

توجهت نحوها • كانت صورا قديمة • تلك الصور
المائية التى يبدو فيها الداكن بنيا والفاتح رماديا • كانت
لمعبد الكرنك والدير البحرى والاهرامات ولكنها أشارت الى
واحدة فيها رجل يجلس على سنام جمل يرك على الأرض أمام
الهرم • كان الرجل مستدير الوجه يلبس سترة داكنة وياقة
بيضاء وكان يبتسم • وأمامه يقف ممسكا بمقود الجمل رجل
يلبس جلبابا يبدو ذراعه النحيل من كم جلبابه الواسع •

تطلعت اليه والى شاربه الذى يعلو فمه الواسع • الى وجهه
المقطب الحزين • كان يشبه أبى •

قلت للعجوز - هل آخذ هذه الصورة ؟

رفعت رأسها الى وقالت وهى تثبت نظرتها فى وجهى دون
أن تبسم •

- أنا أفهمك • أفهمك تماما •

ثم أغلقت الألبوم فجأة وقالت - معذرة • لا يمكن أن
تأخذ هذه الصورة •

وكانت آن مارى تقف هناك ، شاردة ، لا تتابع حديثنا ،
تعتمد يدها الى المائدة •

(٣)

في الأسبوع الثالث ذاب الثلج ولكن بقيت بعض أكوام
منه كالرمل بحذاء الرصيف • وظلت الغيوم في السماء وظل نور
النهار ضعيفا •

وفي هذا الأسبوع قال لي فتحي بقلق اننى أزداد نحولا
يوما بعد يوم وأئننى يجب أن أرى طبيبا • قلت له انه يستطيع
أن يساعدنى أفضل من أى طبيب لو شرح لي كيف أفهم هذه
الدنيا • قال لي طبيبك أنت ولكن لا تقاوم • قلت له ليس
هذا هو الكلام الذى يساعدنى، فهز رأسه في حزن •

استدعاني رئيسي في العمل أيضا وقال لي نفس الشيء •
قال ان صحتى « بسيطة تمام » ، وانه يمانع في اعطاء الاجازات
هذه الأيام بسبب ضغط العمل ، ولكنه لن يرفض اذا طلبت
لأنه لا يريد أن يفرط في • شكرته وقلت له اننى لا أحتاج
الى اجازة •

اتصل بي كمال مرة في منتصف الأسبوع وقال انه يطلبنى
كثيرا ولا يجدنى فأين أذهب في المساء • قلت أخرج وأمشى •
قال في هذا البرد • قلت نعم •

لم تظهر آن مارى على محطة الأتوبيس في أى صباح •

ذهبت مرة الى مكتب البريد قبل أن أتوجه الى العمل ،
ولكنها لم تكن هناك أيضا •

وحلمت بها ذات ليلة وكانت في الحلم طويلة الشعر تجرى
على شاطئ بحر وهي خائفة وكأن شيئا يطاردها • وعندما
استيقظت كان العرق يغمرنى وكنت أشعر بشيء من الخوف •

قرب نهاية الأسبوع اتصل بى كمال فى التليفون وكان
منفعلا • قال انه فعلها • انه فعلها أخيرا واستراح • قال انه
كان يعتقد أن كل ما يشكو منه الصداق ، الأرق ، الكوابيس ،
نوبات البكاء كلها ترجع الى موجات الكهرباء ولكنه كان
مخطئا • سأله أية كهرباء ، فقال ألا تعرف انه فى هذا البلد
توجد أعاصير كهربائية فى أيام معينة تؤثر على المخ ؟ قلت له
انتى لم أسمع بذلك ، فقال هذه حقيقة معروفة ألا ترى أن كل
الناس يتصرفون تصرفات غريبة ؟ قلت له انتى مندهش لانتى
أراهم مع ذلك أذكاء فى تدبير أمورهم ، ناجحين فى أعمالهم ،
أثرياء وصحتهم جيدة • فهل تصيب هذه الكهرباء أجزاء معينة
من المخ وتترك أجزاء أخرى ؟ هل تصيب أناسا وتترك آخرين ؟
قال لى كمال وهو ما يزال منفعلا أنت تنظر الى الأمور من
السطح ، كل هذه الأشياء لعب من الكرتون • البيوت العالية
والمصانع الهائلة والطائرات السريعة والمقابر ذات التماثيل
والزهور • كل هذه لعب من الكرتون لا تخدع سوى الأطفال •

أنظر الى الداخل ولن تجد سوى خرائب • أنظر لمن يكلمون
 أنفسهم في الطرقات • لمن يجلسون في المقاهي يحدقون بنظرات
 كعيون الأسماك الميتة • أنظر لهذه الوحدة والجنون والكراهية •
 ما الذى يرغمننا على ذلك ؟ هذا الكون رحب ورائع لكننا ندفن
 أنفسنا في جلودنا ، تعمى عيوننا عن النعيم الحقيقى والفرح
 الحقيقى ، فلماذا لا أفتح عيني • لماذا لا أفعل مثله • لماذا
 لا أقرأ الكتاب ؟

سألته ماذا سيفعل الآن فقال انه استقال من البنك وانه
 ينوى أن يعود الى مصر وينصحني أن أعود معه • بنى بيتا في
 مكان ما في الصحراء • خلفنا الخلاء وأمامنا البحر وفوقنا
 السماء • نعيش بعيدا عن التكالب وعن الزحام وعن شجار
 الأطفال الديويين الذين لم يعرفوا نضج العقل المجرب ولا براءة
 العمر البكر • نعيش ما بقى من عمرنا فرحة حقيقية في ذلك
 النعيم السماوى •

شكرته وقلت له اننى أتمنى له السعادة التى تريدها
 واننى سأفكر •

لم أنم جيدا في تلك الليلة وفكرت كثيرا في آن مارى •
 في الصباح نزلت مبكرا قبل موعد العمل وتوجهت الى

بيتها • كان الصبح قد بدأ لكن الشوارع كانت دامسة وأنوار الطريق ما تزال مضاءة •

رتبت كيف سأعذر لذهابي في هذا الموعد المبكر :
بعثت في مكتب البريد ولم أستطع الاهتداء الى رقم التليفون
في الدليل فجئت لمجرد أن أطمئن عليها • ولم أكن أعرف ان كان
هذا السلوك يعد خارجا أم مقبولا في نظر أهل البلدة •

ضربت الجرس مرة • لم يرد أحد •

هل يحتمل أن تكون قد خرجت في مثل هذا الوقت
المبكر ؟ سافرت مع أمها بعيدا ؟ ما الذي يمكن أن يكون قد
حدث ؟

خرج رجل من شقة مجاورة يحمل في يده حقيبة • تطلع
الى بفضول ثم أدار المفتاح في باب الشقة وتوجه الى السلم ،
لكنه لما رأى أضغط الجرس مرة أخرى استدار وعاد الى :
قال - أعتقد أن أحدا لن يفتح لك • منذ ماتت الأنسة والمدام
مريضة ••

الآنسة ؟ من ؟ كيف ؟

قال الرجل - ألا تعرف ؟ ربما كان يجب ألا أقول لك ،
ولكن ما دمت ستقابل المدام فربما يحسن ••

قلت مرة أخرى – آن ماري ؟ كيف ؟

قال في حزن – الآنسة أنهت حياتها • من شرفة البيت •
في قلب الليل • كنا •••

ولكن في تلك اللحظة فتح الباب • فتحت السيدة العجوز
بشباب النوم ، شعرها الأبيض مهوش حول رأسها وعلى كتفها
المحنيين شال أسود •

ولما رأته صرخت صرخة واحدة ورجعت للخلف •

قالت – هل جئت الآن من أجلى أنا يا سيد ؟ هل جاء
دوري أيضا ؟

ثم أمسكت مقبض الباب وتهاوت على الأرض فرمى الرجل
حقييته وأسرع إليها ، وعدوت أنا ، عدوت على السلم وعدوت
في الشارع وعدوت في المدينة •

لم أذهب للبيت ، لم أذهب للعمل ، لم أذهب لمكان •

ولكني في المساء كنت في الفراش •

هل كنت نائما أم كنت مستيقظا عندما خفق في الغرفة

ذلك الجناح ، وهل كان صقرا أم حلما ذلك الذى رأيت ؟
مددت يدي • كنت أسمع الحفيف ومددت يدي • انبثقت أنوار
وألوان لم أر مثل جمالها وحفيف الجناحين من حولى • ومددت
يدي • كنت أبكى دون صوت ولا دموع ولكنى مددت
يدي •

سندس

كان ذلك الصباح الشتوى دافئا بعد أيام باردة نزلت فيها
 أمطار نادرا ما تسقط في القرية • وفي صحن الدار كانت
 الكتاكيت تجرى وتصوصو بأصوات فرحة بالشمس التي
 تغمرها وهي ترفرف بأجنحتها ذات الريش الذهبى القصير •
 ومع ذلك فعندما سمعت أم ادريس نباح الكلب خارج الدار
 انقبض قلبها • من يأتى في مثل هذا الوقت ؟ لم تكد تمر
 ساعة زمن على خروج رمضان والأولاد الى الأرض • لا يمكن
 أن يعود أحدهم الآن ، فهل جرى شيء لعزوز في المدرسة ؟
 يمشى كالتائه في البيت وفي الطريق • حدث له شيء في الطريق ؟
 سترك يارب • في تلك الليلة حلمت حلما مزعجا لا تذكره •
 لكنها تظن أنه كان هناك لحم نىء في الحلم • ليست متأكدة
 تماما ، ولكن ربما كان هناك لحم نىء • سترك يارب •

وعندما وقفت أمامها مباركة وقالت :

— سندس الحلبية على الباب •

تنهدت وقالت لنفسها : لم يكن ينقصنى الا هذا •
سندس عينها والسم واحد ، لكنها أزاحت مباركة بيدها ،
وقالت وهى تطل برأسها من الغرفة الداخلية المظلمة :

— ادخلى • ادخلى يا سندس •

دخلت سندس من عتبة الدار تسبقها قدمها اليمنى وقالت :
— بسم الله الرحمن الرحيم • الخير لأهل الخير •

كانت تحمل على رأسها صندوقها العتيق تسنده بيدها
اليسرى ، بينما تتدلى من كوع اليد نفسها ، ربطة قماش كبيرة
معقودة ، وكانت تمسك بيدها اليمنى عصاها الطويلة • توجهت
الى أم ادريس التى برز نصف جسمها النحيل من الغرفة •
وضعت صندوقها وربطتها وعصاها على الأرض ، واندفعت
تمسك يد أم ادريس ، وأنحنت عليها تريد أن تقبلها • دفعتها
أم ادريس فى صدرها ، وهى تجذب يدها بقوة ، وتقول أ

— ابعدى يا كافرة • لا تحملىنى ذنوبك • حبيبة يعنى ؟

اكتفت سندس بأن مالت ، وقبلت كتفها ، وقالت وهى
تجلس على الأرض أمام باب الغرفة المفتوح فى صحن الدار
المشمس :

— أى والله حبيبة ، ويعلم ربي •

جلست أم ادريس على عتبة الغرفة المرتفعة على الأرض
بسلمتين عريضتين ، وقالت وهى تواجه سندس :

— حبيبة ولا نراك الا فى جمع الغلة • قال لك عقلك
أراهم بعد الذرة الشامية • تذهين الى بيوت الناس ، وتسألين
عن الصحة والأحوال ، أما نحن فلا نراك الا فى جمع الغلة •
كم مرة ذهبت الى بيت الحاج يوسف ؟

كانت سندس تستمع الى هذا الكلام منكسة الرأس •
كانت متعبة هذا الصباح • شعرت بالربطة والصندوق ثقيلين
فى يدها فى الطريق •

وتنبهت أنها لم تفطر بعد • ستفطر فى هذا البيت بعد
قليل • وسيأتون لها بالشاي ، ورغيف القمح ، والبيض المشوى •
أما الآن فالعمل صعب كالعادة مع أم ادريس • كيف تبدأ ؟
انحنى تفتح ربطتها وقالت وهى تضحك :

— يديم سعدك يا أم ادريس وأسأل عنك فى الأفراح •
اليوم عندى لك بضاعة كلها ان شاء الله للأفراح •
هزت أم ادريس رأسها وقالت :

— جئت الى بعد أن انتهيت من الأحباب يا سندس ؟

لكن سندس بدأت تخرج الأثواب المطوية من ربطتها الكبيرة • وأحست وهي تفعل ذلك بعينين مثبتتين عليها • كانت مباركة تقف الى جانبها صامته لا تتحرك • كانت تتأمل عيني سندس الخضراوين المحاطتين بكحل كثيف ووجها الأبيض المستدير ، ولما أزاحت طرحتها رأت شعرها الأصفر اللامع ، ورأت في أذنها حلقا هلاليا مذهبا يكاد يصل الى كتفها • وعندما التفتت اليها قالت مباركة :

— أنت حلوة يا سندس وحلقك حلو •

ضحكت سندس مرة أخرى وقالت :

— أنت الحلوة • بسم الله ما شاء الله • كبرت يا مباركة •

ثم التفتت لأمها وقالت :

— عينها واسعة وجميلة كعين البقر •

ولما بدأت سندس تفرد ثوبا من الحرير الأزرق ، وتعرضه على ذراعها أشارت أم ادريس بيدها خفية لمباركة أن تبعد ، لكن الصغيرة جلست مقرفصة بجانب الحلبية وبدأت تهرش رأسها • ولاحظت سندس حركة الأم ولم تبد شيئا ، لكنها عرفت الآن ما عليها أن تفعله •

رفعت سندس الثوب المطوي بيدها اليسرى ، وعرضت

القماش الأزرق المقلم بخطوط ذهبية ، ثم فردته على ذراعها اليمنى ، وراحت تهزه •

وهي تقول بنبرة اعتزاز :

— ما قولك يا ست العارفين ؟ هل رأيت مثل هذا عند أحد ؟

لكن أم ادريس حولت بصرها ، وقالت بفتور :

— لا تتعبي نفسك يا سندس • لن أشتري ولا بقدر قمح • الأرض لم تعط هذه السنة •

التفتت سندس الى مباركة ، وظلت تهز القماش وهي تقول :

— وتبخلين بالثوب الجميل على هذه العروس الجميلة ؟
قالت الأم :

— هذه العويل •••

فقالت سندس :

— هذه القمر • انتظري عليها الى أن تطلع الرماتتان •
سيطير لها عقل رجال •

ثم وضعت الثوب الأزرق جانبا ، وبدأت تفرد ثوبا من القطن منقوشا بورد أحمر •

قالت أم ادريس بعصية :

— وهذا الثوب الأصفر الذى تخفيه تحت الأثواب • لم تخفيه يا سندس ؟ لمن تخفيه •

قالت سندس :

— ما هو مخبوء خلف نين العين أفرشه لأم ادريس ، وأفرش لها خدى لتمشى عليه •

لكن أم ادريس هبت فجأة ، واندفعت نحو ابنتها التى كانت تدعك عينيها ، وقالت وهى تقبض على يدها :

— يا عويل ، يا هالكة ناسك • طول النهار فى التراب • يدك فى التراب ، ويدك فى عينك • لا قطرة نافعة ولا شافعة ••

لكنها فى ظهرها ، واندفعت البنت تجرى داخل البيت وهى تبسكى ، وتناثرت الكتاكيت التى كانت قد تجمعت كتلة واحدة فى الشمس ، وراحت تعدو متبعثرة فى صحن البيت وهى تصدر أصواتا رفيعة فزعة •

قالت سندس للأم التى عادت تجلس على عتبة الغرفة :

— لا تضريها يا أم ادريس • لم تعد طفلة • سنة أو سنتان ، ويأتيها الخطاب • وسيسحرهم جمال عينيها •

زمت أم ادريس شفيتها ، وقالت للحلبية وهي تلهث :

— لا تتعبى نفسك يا سندس • قلت لك لن أشتري
ولا بقدر قمح • تخفين عني الثوب الأصفر ؟ تخفين الأشياء
الجميلة لأحبائك ؟ لن أشتري ولا بحفنة قمح •

قالت سندس وهي تنزع الثوب الأصفر الذي لم يكن
يظهر الا طرفه من تحت بقية الأثواب :

— ما شاء الله يا أم ادريس ! تخونين خدامتك وجاريتك ؟
والله هذا الثوب لك ، ولن آخذ فيه شيئا • هو منى لمباركة •
وألقت الثوب بجانب الأم وهي تقول :

— والله هذا عندي • الغالى للغالية يا أم ادريس •

قالت أم ادريس وهي تقوم من جديد :

— لا تنفع معى حركاتك يا سندس • اطفئى الشاى وبعدها
يحلها الحلال •

لكن عقلها كان مشغولا وهي تمضى • • ماذا تفعل لتصرف
هذه العين الملعونة عن مباركة ؟

فى الظهيرة ، كانت السحابات القليلة قد تبددت • وتحولت
شمس الصباح الى لسعة حامية ، فلاذت الكتاكيت الى الظل ،
وخفتت أصواتها • وكانت سندس أيضا تجلس فى الظل وهي
تسند ظهرها الى الحائط ، وقد مدت ساقها ، وأمسكت يدها

كوباً من الشاي • وكانت تحتضن مباركة بيدها الأخرى ، وقد
جلستا وحيدتين وصامتتين •

كانت سندس قد أفطرت • وكانت قد باعت الثوب
الأصفر ، والثوب الأزرق المقلّم ، والثوب المنقوش بالورد •
وباعت من صندوقها ابريقاً للشاي ، وأطباقاً من الصينى •
وشربت أم ادريس فنجاناً من القهوة ، وقرأته لها سندس • ورأت
فيه أن الأرض ستعطى كثيراً ، وأن أم ادريس ستحجج الى بيت
الله ، وها هي زينة العودة • وسينجح عزوز في المدرسة هذا
العام • أنصتت لها أم ادريس باقرباء وهي تعتمد ذقنها بيدها ،
وتهز جسدها على وقع كلمات سندس • ولكن بعد أن انتهت
الحلبيه قالت لها : ان عزوز خائب ، وان الأحسن له أن يترك
المدرسة ، ويعمل في الأرض مع أبيه وأخوته •

رفعت مباركة رأسها من حضن سندس وسألتها :

— لماذا تحملين دائماً هذه العصا الطويلة يا سندس ؟
قالت سندس :

— لأهش بها الكلاب يا مباركة • أتثقل طول النهار من
بيت الى بيت والكلاب لا تعرفنى • لو لم تكن معى العصا
تنهشنى الكلاب •

قالت مباركة :

— ولكن أنت أحلى واحدة في البلد يا سندس • لم
لا تتزوجين وتقعدين في بيتك ؟

ضحكت سندس وقبلت مباركة • وكانت الأم تعود وهي
تحمل في ربطة صغيرة رغيفين من القمح وبيضات مشوية •
وعندما رأتها سندس أبعدت يدها عن مباركة • وكانت أم أدريس
تقول لابنتها :

— رجعت يا مكشوفة الوجه •

فقامت مباركة تجرى واختفت داخل البيت •

وعندما نهضت الحلبية ، وساعدتها أم أدريس في وضع
الصندوق على رأسها ، وتوجهت نحو الباب ، وهي تدعو
لأم أدريس ، وللحاج • وللأولاد ، تذكرت مباركة ، وتذكرت
المرّة القادمة التي ستأتى فيها الى هذا البيت فتوقفت وقالت :

— ويخلى لك مباركة وتفرحين بها يا حاجة • البنت كبرت
ما شاء الله • لكنها مثل عود الذرة الناشف • خذوها للطبيب •
غدا يخرطها خراط البنات ، ومن يرضى بنت مثل عود الذرة ؟

خرجت الحلبية ، وسمعت الأم نباح الكلب ، وصرخات
سندس عليه وهي تهشه ، فتنهدت • لكنها نادى مباركة • راحت
للكانون وهي تجذب البنت من رقبتها • أخرجت من جيب
جلبابها الأسود فصا من المستكة ، وأخرجت بالماشة جمرتين ،
وجعلت مباركة تخطو فوقهما سبع مرات •

النافذة

ظن البعض انها نكتة • ففي الصباح في البرد ، قبل شرب الشاي ، وساعة الرءوس المختفية داخل صحف الصباح مر علينا الساعى بمنشور ادارى غريب • رفض البعض استلامه ، وقالوا انها لعبة سخيفة على الصبح ، واتهموا الادارة المجاورة • ولكن بعد أن تأكد الأستاذ كمال أن توقيع المدير العام لا تزوير فيه وقعنا بدورنا بالعلم والتنفيذ: « ممنوع على الموظفين الوقوف في النوافذ والشرفات في أوقات العمل الرسمية » علت الدهشة والتكهنات وقال حسان بعموض ان الأمر أخطر مما تتصور ولكننا كنا متأكدين انه لا يعرف أى شيء •

وبعد لحظة دخل مديرنا ووقف وسط المكتب صامتا محنى الرأس وييده المنشور • سأله سامح عن المسألة ولكن المدير

قال وهو يتأمل المنشور في حزن : ان هذه هي آخر قصة .
 فلا يكفي انه متخلف عن كل زملائه في الدرجة ، ولا يكفي أن
 الحكومة ترفض الاعتراف بالدكتوراه التي حصل عليها من
 اليابان وتعامله بالليسانس ، ولا يكفي انه مبعد عن كل اللجان
 ذات الأجر الاضافي ، ولكن ها هو النحس الأخير : المدير العام
 يهدده بالنقل لأنه لا يستطيع أن يسيطر على الموظفين .

كان سمير أكثرنا خبرة بمديرنا فأجلسه على كرسي في وسط
 المكتب ، وطلب له الشاي ، وقال ان الأمور في المصلحة سلاطة ،
 وان الكفاءات مضطهدة وان الموت أحسن من الحياة بكثير ،
 وان أحدا لا يفهم شيئا - فمثلا ما معنى هذا المنشور ، قال
 المدير حزينا ان سببه هو دلع البنات . فالبنت التي لا تريد أن
 يعاكسها أحد تبعد من نفسها ، وقد ظل يقول هذا دائما لناظرة
 المدرسة الثانوية التي تواجهنا كلما كلمته في التليفون واشتكت
 من معاكسة الموظفين للبنات . ولكن اتضح أخيرا أن في مجلس
 الآباء بالمدرسة رجلا مهما جدا ، اشتكت له الناظرة ، فاتصل
 بالمدير العام ، وهدد أن ينقل المسألة للوزير شخصيا ان لم
 تتوقف معاكسات الموظفين .

سأل سمير ، ولكن لماذا يتهمون ادارتنا بالذات ؟

فقال المدير ان هذا في الغالب من شكاوى الناظرة الملعونة ،
 ثم وضع يده على صدره وسألنا ، هل نريد أن نذبحه ذبحا ؟

ألا يمكن أن نكف عن المعاكسة من أجل خاطره •

تعالص أصواتنا بحب المدير ، وأكد سمير أن المعاكسة نوع من التفاهة ، ووافقناه جميعا • قال المدير انه لا يبقى في المصلحة الا من أجلنا ، لأننا كأولاده ، أما بقية المديرين الملاعين فهم يكلمونه من أنرفهم • يتباهون عليه بعضوية اللجان في الغالب • والآن ها هو تعنيف المدير العام •• فهل معنى هذا أن تضع عليه فرصة الترقية بالاختيار في المرة القادمة أيضا ؟ •• وهل يجب في هذه الحالة أن يدخل لوكيل الوزارة بنفسه ؟ •• أم يهاجر الى اليابان ويشغل بتدريس اللغة العربية في جامعة هناك ؟ •

كان علينا أن نهديء مديرنا المتخلف في الدرجة وأن تؤكد له أن مخاوفه غير صحيحة ، وان مكتبنا بالذات مشهود له في المصاحبة بأنه لا يعاكس البنات • وعندما جاء الشاى سأله الأستاذ كمال أكبرنا سنا ووقارا - هل صحيح أن شرب الشاى هو نوع من العبادة في اليابان ؟ فشرح مديرنا بالتطويل أنه ليس كذلك ولكنه نوع من المحبة بين البشر ، ثم فرد يديه ليشرح ، ولكنه تعثر وكرر بصوت خافت (المحبة بين البشر) • قال حسان انه سمع من مصادر مؤكدة انهم يشربون الشاى هناك بمغارات مخصصة في الجبال ، فغضب مديرنا لذلك وقال ان اليابان راقية جدا ، وانه البلد الوحيد في العالم الذى تجرى

فيه ألقطارات على كبار معلقة فوق المدن • قال سامح ، ويكفى
أيضا أن مديرتنا تعلم هناك • احمر وجه المدير وخرج وهو
يتمتم بكلمات غير واضحة •

عندما خرج عاتبتنا سامح لسخافته مع المدير ، ولكنه
أشاح يده قائلا انا سعداء لأننا تركبته • أما الحقيقة فهي أن
المصلحة كلها تركبنا بسبب ضعفه • فمثلا لماذا لا نحصل
على مكافآت تشجيعية ؟

قال سمير ان مديرتنا طيب جدا ، وانه من أنشط المديرين
بالفعل ، وانه ينجز العمل بكل مهارة ، ولا يعيبه غير مسألة
الشكوى فأيدناه في ذلك أيضا •

ولكن حسان اتتهز فرصة تجمعنا في وسط الغرفة وقال
انه نتيجة لبعض الظروف والمشاكل العائلية فهو يريد جنيها من
أى واحد منا • اعطاه الأستاذ كمال الجنيه وهو يتسهم في خجل ،
وعدنا الى مكاتبنا •

وبعد قليل انتهت الحصة الأولى في الفضل المقابل لنا •
بدأت البنات يقفن في النوافذ ويشرن بأيديهن ولكن أحدا لم
يتحرك واكتفينا بالنظر من أماكننا على المكاتب • وتكرر ذلك
بعد الحصة الثانية ووقفت البنات يتهايمن باستغراب ، ثم

تجرات واحدة فوضعت كرسيًا فوق مكتب وجلست عليه بحيث أصبحنا نراها جميعًا ثم وضعت ساقًا على ساق وبدأت تزيح ذيل مريلتها بالتدريج ، والبنيات يصفقن ضاحكات ، وعندما ظللنا جامدين في أماكننا بصقت نحونا باحتقار ثم نزلت وأغلقت النافذة في عنف ♦

وقال الأستاذ كمال ووجهه محمر جدًا انه يلاحظ أن الجيل السابق كان أكثر أدبا من الجيل الحالي وهو لا يعيننا بالذات ♦

فقال له سمير أن يأخذ راحته في الكلام ♦
 قبل الظهر تأكد أن الشبهات تتركز حول مكتبنا ♦♦ جاءنا استدعاء جماعي عاجل من النيابة الادارية فذهبنا نحن الخمسة كمال وسامح وحسان وسمير وأنا ♦ جلسنا متراصين أمام باب وكيل النيابة الذي استدعانا حسب الحروف الأبجدية ♦

بدأ الجميع سعداء بفرصة الخروج من المكتب قبل موعد الانصراف وكانوا متحمسين ومرحين ، ولكن من يحين عليه دور الدخول كان ينقبض قليلا ♦ وقال الذين خرجوا ان الاجراءات بسيطة : تقسم أن تقول الحق ، وتقسم أنك لم تعاكس وأنت لا تعرف من يعاكس ثم توقع في نهاية الورقة ♦ وقال حسان انه أقنع وكيل النيابة ببراءتنا جميعا وأنه وضعه في جيبه تقريبا وليس لنا أن نخاف من شيء ♦ ولكن كانت هناك مفاجأة - فقد خرج سمير عابسا ورفض أن يبوح لنا بشيء ♦

كان دورى هو الأخير ، وحين دخلت كان وكيل النيابة
يتكلم فى التليفون هامسا ويقول (نعم .. نعم .. نعم) -
وأشار لى بيده أن أجلس وأشار لسكرتيه الذى كان يجلس
أمامه فى وقار ، عابسا تقريبا ، فدون اسمى فى رأس ورقة
وكتب سطرين وجعلنى أقسم أن أقول الحق .

وضع وكيل النيابة السماعة وتنهد وضم يديه أمامى على
المكتب وقال لى - أنت بالطبع لا تعاكس .

بالطبع .. وبالطبع لا أعرف من يعاكس وأقسم .

وصتت وكيل النيابة وراح ينظر الى والى السكرتير من
وراء نظارة طبية سوداء . ثم سألنى بغير مبالاة أ

- هل أنت عازب ؟

- نعم .

- وأين تسكن ؟

- فى لوكاندة .

- وأين أسرتك ؟

- فى البلد .

كانت عينى على السكرتير وهو ينبش ذلك بخط سريع غير مقروء وعندما انتهى أردت أن أقوم ولكن وكيل النيابة أشار لى يده أن أجلس - وسألنى :

- أين مكتبك بالضبط بالنسبة للنافذة المطلة على الفصل؟

- بجوارها مباشرة ♦

- وبالنسبة لمكتب من يسمى ♦♦

بدأ يقلب فى الأوراق فقال سكرتيه بسرعة وأدب :

سمير حسن ♦

رفع وكيل النيابة رأسه من الأوراق وتطلع الى مستفهما :

نعم ، سمير حسن ♦

فقلت : أمامى ♦ مكتبه فى مقابل مكتبى ♦

فقال : اذن فاذا وقف واحد عند النافذة فلايد أن تراه

أليس كذلك ؟

- نعم ♦ ولكن الجميع يقفون ♦

قال وهو يرفع يده أمام وجهى ويتسم أرجوك أجب

على قدر السؤال ♦

فقلت : نعم ♦

قال وهو ما يزال يتسهم : أين تقضى أوقات فراغك بعد العمل ؟

— ...

— هيا ، أين ؟ •• في اللوكاندة ؟ في المقهى ؟ في ناد ؟ على النيل ؟ ليس صعبا أن تجيب •

— لا أعرف كيف أجيب •

— اذن فأنت لا تفعل شيئا محددًا ، تفعل شيئا مختلفا في كل يوم • أهذا هو الجواب ؟

— أنا لا أفعل شيئا أبدا • أمشى في الشوارع حين أجد الوقت •

— وحدك •

— وحدي •

— ولكن كيف ؟ ماذا تفعل ؟

— أليس لك أصدقاء ؟

— زملائي في المكتب — لكننا لا نلتقى بعد العمل •

— أمشى فقط ، ثم أعود الى اللوكاندة •

— من يقف في النافذة ؟

- ماذا ؟
- من يقف في نافذة المكتب ؟
- لا أعرف •
- قلت حالا أن الجميع يقفون •
- نعم •
- من بالذات ؟
- لا أحد بالتحديد • الجميع يقفون •
- بدأ يقرأ على الاسماء ويسألني وهو يقرأ كل اسم :
- « هل يقف في النافذة ؟ » — أردت أن أقاطعه ولكنه قال لي
- وهو يقرأ (نعم أو لا) •
- قلت بصوت مرتفع الى حد ما — لا أعرف • لا أراقب من
- يقف بالنافذة •
- وماذا يفعل من يقف في النافذة ؟
- لا أعرف •
- هل تقف أحيانا في النافذة ؟
- لا • • نعم ، نعم • أقف أحيانا •
- وماذا تفعل حين تقف في النافذة •
- لا شيء • أتفرج على الشارع •

- وماذا يوجد في الشارع ؟
- أقف أحيانا لأنى تعبت من الجلوس على المكتب •
- ماذا يوجد في الشارع ؟ الا يقع بصرك أحيانا على
- فصل البنات أمامك ؟
- لا •• نعم ••
- أنت مرتبك ؟
- لا ••
- متعب ؟ نوقف التحقيق ؟
- لا ••
- كن صريحا • المسألة سهلة • نوقف التحقيق • أطلب
- لك كوبا من الشاي ؟
- لماذا ؟ فقط أرجوك أن تسألنى أسئلة محددة •
- هل ستعلمنى على ؟
- لا • أنا آسف •
- هل تشعر أنى متحيز ضدك ؟ هل هناك سبب لهذا ؟••
- مطلقا • أنا آسف •
- ما معنى هذا اذن ؟ أردت أن أطلب لك الشاي •

— أشكرك • لا داعي •

— اذن سؤالي واضح وبسيط • هل تنظر أحيانا الى
فصل البنات ؟

سكت مرة أخرى فقال وهو يضحك متحيرا •

— أنا لا أفهمك • أنت انسان غريب • تتوقف عند الأسئلة
البسيطة • زميلك سمير اعترف بكل بساطة أنه يعاكس البنات
في المدرسة ولم نسجنه لذلك • المسألة كلها تافهة في الحقيقة •
وأنت ترفض الإجابة على الأسئلة البسيطة •

— غير صحيح • غير معقول أن يقول ذلك •

قال وهو يخلع نظارته : كما تشاء • أجب على سؤالي •

صحت فجأة : حسنين سالم !

قال في دهشة • نعم ؟

أشرت له بارتباك : أنا آسف ، ولكن سيادتك •• حين
خلعت النظارة •• أقصد — هل أنت حسنين سالم ؟ السعيدية
الثانوية ؟ القسم الداخلي ؟

قال : نعم • ثم حلق في لفترة ، وبدا يضحك فجأة وهو
يقول : أنت !

فأسرع سكرتيه يقرأ اسمى بلهفة ويتطلع اليه مبتسما
فقال : نعم ، نعم .. الرحلة للسودان مشيا على القدمين ! ثم
عاودته نوبة الضحك - وضحكت أنا أيضا حين تذكرت .
قال وسط ضحكاته وهو يمسك جيبيته : عدنا قبل أن نصبل
الى الحوامدية .. بل قبل أن نخرج من الجيزة .
فقلت له : أنت الذى بدأت بالشكوى .

- تورمت أقدامنا ، ولم نستطع أن نشرح شيئا لمشرف
القسم الداخلى . ولكن ماذا حدث لمشاريعك الأخرى ؟

قال السكرتير بهمس مسموع وهو يشير للأوراق
هل ... ؟
فقال له : نعم ، نعم ..

ثم أملاه سطرين ، وأشار لى السكرتير أن أوقع وهو
يبتسم فى وجهى ثم جمع أوراقه وخرج .
قال لى حين خرج السكرتير - احك لى . ماذا حدث
لك ؟ .. كنت تفكر أن تعمل طباخا على مركب وتهاجر للبرازيل
أليس كذلك ؟

قلت : أنا الآن منتسب لكلية التجارة ..
رحنا تتكلم ساعة ، وقبل أن أخرج سألته عن التحقيق
فقال بلا اهتمام :

— حكاية تافهة • أنا في حياتي لم أحقق في قضية تافهة
ك هذه • عندي اختلاسات وبلاوى كبيرة ، ولكن مصلحتكم
تهتم بمكارم الاخلاق •

بدأ واضحا أنه لا يرغب في الحديث عن ذلك ، فصافحته
وخرجت •

حين عدت الى المكتب سألونى عن سبب بقائى طول هذا
الوقت •

حكيت لهم ، وقلت لسمير ضاحكا ، اننى أوصيته ليرأف
به • لكن سمير وقف فجأة خلف مكتبه وقال وهو يلوح فى
وجهى •

— أنا لا تهمنى وصاياك ! وقل لصديقك هذا أيضا انى
لا تهمنى اتهاماته • اذهب وقل له اننى أنا وحدى الذى أعاكس
بنات المدرسة •

قلت بدهشة : ماذا جرى ؟ وما ذنبى أنا ؟

فقال : ألم تقل ان هذا المجنون صديقك ؟ ! اذهب وقل
له سمير حسن عبد السلام هو وحده الذى يعاكس ويصاحب
ويمشى مع كل البنات ، ويقفز من النافذة الى المدرسة كل
يوم أيضا •

تدخل باقى الموظفين لتهدئة سمير ، وجاء الشاى وأحاطوا
بمكتبه ، وتردد اسمى عدة مرات ، وانهمكت أنا فى فحص
أوراق لا أفهم ما فيها ، وأخيرا قام سمير وتقدم نحوى ،
والبعض يدفعه فى ظهره •

قال : حقك على •• أعصابى تالفة •

فقلت : لا تهتم ، أنا أقدر •

قال وهو يضحك فى حيرة : بعد كل تلك الأسئلة لو كان
قد سألك !

— ولكنه سألنى •

— لا ، لم يسألك عما تفعله حين تقف فى النافذة ولا عن
الطريقة التى تقضى بها أوقات فراغك ، ولا عما اذا كنت متدينا •
وكيل نيابة هو أم أمام ؟ أراهن أن له خمس عشيقات • والطريقة
التي يسأل بها أيضا ! انفجرت فيه أخيرا وقلت له اذا كان يريد
أن يقول انى أعاكس البنات فليقل ذلك • وكتب هذا بالفعل •
كنت مستعدا أن أقول له اننى أقتل البنات بشرط أن يتوقف
أسئلته •

قلت ببساطة : هذا عمله • وحين نظر الى سمير مندهشا
أكملت بسرعة : ولكن أسئلته غريبة • سألنى أنا أيضا بعض
الأسئلة ••

قال سامح : عن أى شىء ؟

فقلت بارتباك : نفس الأشياء تقريبا .. ماذا أفعل فى
النافذة .. من يقف فى النافذة .. أين أعيش ..

قال سامح : وبماذا أجبت ؟

قلت : لم أجب بشىء . قلت له اننى لا أعرف شيئاً عن
الموضوع كله ، ولم يطل التحقيق فى الواقع ، .. استغرقت
الذكريات معظم الوقت ..

سأل سامح بالحاح : وهل أوصيته على سمير بالفعل ؟
كانوا جميعاً يتطلعون الى باهتمام فقلت بسرعة : نعم ،
نعم ، أوصيته .

فقال سمير : أشكرك . أنا آسف مرة أخرى .

ثم عاد الى مكتبه وعدت الى أوراقى وأنا لا أجسر على
التطلع اليه لفترة .

فى اليوم التالى كنا قد نسينا ، وبدأنا أيضاً نلوح للبنات
من أماكننا على المكاتب ، وفى اليوم الثالث تجرأ سامح ووقف
يتفاهم مع صاحبتة بالإشارات وتبعه باقى الموظفين - ثم عادت
الأمر كما كانت من قبل مع احتياط : كان على الساعى الواقف

بالباب أن يخطرنا بظهور أى شخص غريب فى المر • ولكن
حدث بعد أسبوع ما لم نكن نتوقعه •

دخل مديرنا المكتب عدة مرات وخرج صامتا ومشغولا ،
قفهنا من ذلك أنه يريد أن يقول شيئا ، وأوفدنا سمير ليعرف •

عاد سمير بعد لحظات شاحب الوجه ، وجلس على مكتبه
ويده ورقة مطبوعة صفراء ، وضعها على المكتب وتقدمنا جميعا
متوجسين أزاح الورقة نحونا ويده ترتعش وقرأنا وسط كلام
كثير « يعاقب بالانذار لاعترافه وما أثبتته التحقيق من سلوكه
المعييب فى العمل » • ساد الصمت والوجوم ثم انفجر أحد
الموظفين : هذا عبث ! تظلم لمجلس الدولة •

وقال سامح : ولا يهملك ، احمد ربنا • الانذار لا يوقف
الترقية •

ولكن سمير نظر له غاضبا وبدأ على وشك أن يشتمه فتدخل
الأستاذ كمال بسرعة وأفتى بأن التظلم يكون للوزير أولا •
وكثرت الفتاوى ، ولكن سمير قطعها بصوت عال ومرتعش
وقال وهو يطوى الورقة •

— أنا سأعرف ما أفعله • لن أسكت على هذه الفضيحة
فى ملف خدمتى •

وبينما كنا تتفرق من حوله قال سامح وهو يشير لى
ويضحك ♦♦

ـ كله من صديقك ومن وصاياك ا

اتجهت الانظار نحوى وأردت أن أعترف بأننى لم أوصه ،
لم أكن أملك أن أفعل ذلك فى الحقيقة ولكننى التزمت الصمت
وعدت الى مكتبى ♦

كان ذلك اليوم صامتا ، وتلته أيام كثية ♦ راح سمير
يتكلم بالتليفون معظم الوقت ويجرى استشارات هامة مع زوار
غرياء لمكتبه ، ولم يدقق مديرنا كثيرا فى مواعيد حضوره
وانصرافه ، ولكن سامح قال انه لو كان مديرنا قوى الشخصية
لما أمكن أن يحدث لسمير ما حدث ♦ وتوقفت المعاكسات
أثناء وجود سمير فى المكتب ♦

وبعد ثلاثة أيام حدث ذلك الشئ ♦ دخل سمير المكتب
مبتسما لأول مرة منذ الانذار ، وحين جلس على مكتبه سألته
عن الأخبار ♦

فنظر الى طويلا ، ثم قال وهو يفتح صحيفته ♦

ـ الحمد لله ♦

لكننى قلت له بلهجة عادية وبصوت عال ♦♦

— هل هناك أخبار جديدة ؟

قذف الجريدة على مكتبه بعنف وقال : ما هي الأخبار
الجديدة ان شاء الله ؟ هل تريد أن أفصل نهائيا لكى تستريح ؟
قلت : أنا مخطيء حقا لأنى اهتم بالسؤال عنك •
حقك على •

فقال وهو يضحك ضحكة غريبة متقطعة : ما شاء الله !
أنت الذى ستغضب الآن ؟
ما معنى هذه التمثيلية ؟ هل تعتقد أنى حمار لأنى
لا أتكلم ؟ •

— وما معنى هذا ؟ أنا لا أفهم أى شيء •

— ولكن أنا أفهم • هذه الطبخة كلها طبختها أنت
وصديقك • ما معنى هذه العبارة من فضلك قل لى « بناء على
اعترافه وما أثبتته التحقيق » ما الذى أثبتته التحقيق ؟ لم يتكلم
أحد من الموظفين هنا عن شيء ، أنت وحدك الذى طال التحقيق
معه • أنت وحدك صديق وكيل النيابة • وأنت وحدك الذى
ستستفيد من تعطيل ترقيتى لو •• (لو حدث وتعطلت) •
وأنا أبشرك بأنها لن تتعطل •

ثم ضحك من جديد وقال — أنت وحدك الذى أوصيته
على •

قلت وأنا أقف وأدق على مكتبي • هذا اتهام حقير
ولا أسمح لك به ••

فقال : أنا آسف يا صاحب وكيل النيابة • أنا لم أرد أن
أكلمك أصلاً ولكن أنت الذى بدأت • تتحنج سامح ، وقال :
يا جماعة •• حصل خير •• كنتم دائماً أحسن أصدقاء •

همهم باقى الموظفين بكلمات غير مسموعة • فقال سمير
مخاطباً سامح وهو يعود لجريده •

— معك حق • وهذا يثبت أنى مغفل كبير • ولكن الدور
عليكم • الجاسوس دائماً جاسوس •

هجمت على مكتبه ولكن الجميع وثبوا وأمسكو بى
وأعادونى الى مكتبي وأنا أصرخ بكلام لا أعرفه • حين هدأت
عادوا الى أماكنهم وانهمكوا فى أوراقهم ، وتحاشى الجميع أن
تلتقى أبصارهم بى •

انقطعت الماكسات نهائياً فى المكتب بعد ذلك اليوم ،
وبدأ سامح يعاملنى بأدب مبالغ فيه ، وقال لى حسان انه
لا يصدق اتهام سمير لى ، ولكنه يرجونى أن أقدر حالته
النفسية ، واستدعانى مديراً الى مكتبه ، وقال لى ان معظم
الأشياء تبدأ صغيرة ثم تكبر ، وانه لا فرق بين الاتهام الظالم
والاتهام الحقيقى ، وأنتى ان لم أصالح سمير فسوف أخسر

أشياء أكثر من سبير • خرجت من عند المدير مسرعا دون أن أرد عليه ، ثم وقفت وسط مكتبنا أحاول أن أسيطر على الرعدة في صوتي وقلت ان أى كلب لديه اتهام لى فليثبتته وليواجهنى بصراحة ، وعندما تطلع الى الجميع فى صمت ودهشة خجلت من نفسى وتوجهت الى مكتبى بخطوات مسرعة • وبعد لحظة قال سامح مخاطبا الأستاذ كمال ومركزا نظره عليه :

— اذا كان الانسان يكره العمل فى مكان فما عليه
الا أن يتركه •

فقال الأستاذ كمال بحماس ووجهه مجتقن •• هذا
رأى أيضا ••

قلت لسامح بصوت عال اننى أفهم أساليبه السافلة وان رأى فيه بصراحة أنه كلب • فقال بهدوء انه لن يرد على ، وانه لا يعتب على أيضا لأنه يفهم أمثالى ويرثى لى • فضحك سبير ضحكة وهو يرفع رأسه من الجريدة وقال ان هناك نقطة لطيفة فى الجريدة ، حكاهما ، وضحك باقى الموظفين •

عند الظهر فى ذلك اليوم طلبنى وكيل النيابة فى التليفون ، لم أكن قد رأيته أو سمعته منذ التحقيق فدهشت ، ولكننى كنت حريصا على ألا أذكر اسمه وأنا أكلمه فى التليفون أمام الموظفين • قال لى انه يريدنى لأمر هام — ورجانى أن أذهب

فورا الى مكتبه وألا أذكر ذلك لأحد • عندما توجهت الى مكتبه طلب منى السكرتير أن أتنظر قليلا • قال لى ان هناك بعض الزوار لدى السيد وكيل النيابة ، وهو يريد أن يقابلنى على انفراد • كان السكرتير مهذبا كعادته لكنه كان متجهما – جلست فى مكتبه الصغير لفترة وبعد لحظة جاء الساعى وطلب منى أن أتفضل •

حين دخلت عند وكيل النيابة وجدته يقف وسط المكتب وهو يشبك ذراعيه على صدره • ابتسم ابتسامة غريبة عندما رآنى ، ولما لاحظ يدي الممدودة صافحنى بارتباك وقال لى وهو يشير الى كرسى •

– تفضل •• تفضل ••

لكنه ظل واقفا وعاد يشبك ذراعيه على صدره فبقيت واقفا أنا أيضا ، ورحت اتطلع اليه منتظرا أن يتكلم •

قال لى بلهجة عادية وهو يتعد عنى ويمشى فى الغرفة – أنا آسف ان كنت قد أزعجتك ، ولكننى أريد أن أسألك سؤالا صغيرا • هل حكيت لأحد أننا كنا زملاء فى الدراسة ؟ •

– نعم فى يوم التحقيق ، قلت هذا لباقي الموظفين •

– ولكن لماذا ؟

ـ ولماذا لا ؟

ضحك وهو يقف أمام مكتبه ويعبث ببعض الأوراق دون هدف • ثم قال : معك حق ، أنا لم أطلب منك ألا تقول ، ولكننى لم أتصور أن زملاءك بهذه التفاهة • يظل الانسان يتعلم دائما •

ـ ولكن ماذا تقصد بالضبط •

قال دون مبالة وهو يواصل العبث بأوراقه : هل أنت الذى تعاكس البنات فى المدرسة ؟

قلت وأنا أبلع ريقى : لا ••

فقال بسرعة : عظيم • اذن فتمسك بهذه الاجابة •

ـ ولكننى قلت ذلك من قبل • قلت لك •

فقال وهو يعود للتجول فى المكتب : ربما تضطر أن تقوله لغيرى •• هناك شىء سخيـف •• شكوى تافهة وصلت لرئيس النيابة بأنك أنت الشخص الحقيقى الذى يعاكس البنات وأنتى أدنت زميلك ظلما لأنك صديقى • شكوى تافهة بطبيعة الحال ولا قيمة لها ، ولكن لابد أن يحقق فيها •

ـ يحقق فيها معك ؟

قال بسرعة وهو يعود لمواجهةي : لا .. لا .. كيف ذلك ؟
معك أنت بطبيعة الحال •

ثم وضع يده على كتفي وقال : كل ما أرجوه منك أن
تتمسك بالحقيقة • قل ما ذكرته لي ، انك لم تعاكس ولا تعرف
من يعاكس • لا تغير أقوالك التي أدليت بها أمامي •
- هذا طبيعي •

قال وهو يضحك : لاحظ أن مرسل الشكوى مجهول ،
ولكننا أنا وأنت تعلم بالطبع من الذي أرسلها •• ربما يستدعي
زملاؤك للتحقيق أيضا فهل تتوقع أن يشهدوا في صفك ؟
كان ينظر في عيني مباشرة فقلت بصوت ضعيف :
لا أظن ••

رفع يده من على كتفي وقال بشيء من الغضب : لماذا ؟
أليس لك أصدقاء ؟
- لا ••

- ولكن كيف ؟ لا يهم • لا يهم • قالوا في التحقيق الأول
انهم لا يعرفون من يعاكس ، ولن يفيد أن يغيروا أقوالهم الآن •
المهم أن تتمسك أنت بأقوالك •

- ولو سألوني ان كنت صديقي ؟

ابتعد عني من جديد وقال : الحقيقة • قل اننا كنا زملاء
في المدرسة • ولكن لا داعي للتفاصيل هه • لا تحك لهم عن
رحلة السودان أو عن ••

ثم توقف فجأة ولوح يده نافذ الصبر وقال - قل
ما تشاء •• لن يضرني أى شيء تقوله أكثر من الضرر الذى
حدث بالفعل ••

قلت خجلا من نفسى : أنا آسف ••

قال هو بلهجتة العادية من جديد : لا •• لا ، وما ذنبك ؟ ••
أرجوك فقط ألا تحكى عن هذه المقابلة أيضا •• أنت تفهم ••
حياد وكيل النيابة ، هو كل شيء بالنسبة له - ولم يحدث في
عشر سنوات عملت فيها ان قدمت شكوى تمس حيدتى -
اختلاسات ومصائب •• والآن من وراء تحقيق تافه ••

انصرف عني ومشى حتى وقف عند النافذة وظل ينظر عبر
زجاجها المغلق فترة طويلة ، لم أجد في ذهنى شيئا أقوله ،
ولكننى صرخت :

- أتريد أن تعرف الحقيقة ؟ اذن اسمع • سأقول ما هى
الحقيقة • كل الموظفين ، كلهم يعاكسون البنات • كلنا • والبنات
يعاكسن الموظفين • كل واحد له صاحبة • البعض لهم أكثر

من صاحبة ♦ يخرج الواحد مع اثنتين أو ثلاث ويذهبون الى الكازينوهات ♦♦ أحيانا الى البيوت ، وبعض البنات لسن ♦♦

— اهدأ ♦♦ أرجوك ♦♦ ما أهمية ذلك ؟ ♦♦ اياك أن تقول شيئاً عن هذا أتسمعنى ؟ نحن لن نصلح الكون ♦

— نعم ♦ عن اذنك ♦ اتسمح لى ؟

— ليس قبل أن تعد بانك ♦♦ بانك سوف تترك بأقوالك الصحيحة ♦♦ أرجوك ألا تزيد الموقف سوءا ♦♦

— كما تشاء ♦

— هل هذا وعد ؟

— نعم ، وعد ♦♦ نعم ♦ أرجوك أن تسمح لى ♦

في المكتب ابتسم المدير ابتسامة حزينة ♦♦

نظر خلفه عبر النافذة المفتوحة وكانت تطل على فناء المدرسة الترابي الأجرد ♦♦ تطل على ملعب خال مخطط بالطباشير تقسمه شبكة ♦

ظل يمسك الورقة بيده وهو ينظر عبر النافذة صامتا ♦♦

قلت ، وخرج صوتي خشنا : أرجوك أن توقع الورقة ♦

أريد أن انتهى من هذا الموضوع اليوم • سوف انهي كل
الاجراءات بنفسى •

ـ لا تتعجل •

ـ أشكر لك النصيحة • أرجوك • بسرعة •

ـ أنا لا أنصحك • لا أعرف أن أنصح نفسى • أولا أنا
لا أملك أن أوافق على استقالتك •

ـ ولكن لماذا ؟ • لا • لا تلق على خطبة • وقع
وليته الأمر •

أدار بصره نحوى فجأة ، وقال بصوت مرتفع :

ـ ولماذا ألقى عليك خطبة ؟ لم تتصور أنك • • ؟ لم
تتصور أنتى • • ؟ حتى أنت ! حتى أنت ! • • وبعد أن وقعت
معى فى نفس المصيدة ! تريد أن تسمرنى فى الصورة التى • •
ألم تتعلم بعد ؟

اختلف صوته ، ووضع يده على وجهه • فى نفس الوقت
ضرب جرس المدرسة • رأيت من مكانى أبواب الفصول
تفتح ـ والبنات يندفعن من الفصول بثياب زرقاء داكنة ـ وراح
صياحهن الرفيع يرتفع بالتدريج • قلت بصوت خافت : ما الذى
يجب أن أتعلم ؟ أرجوك أن تقول لى •

رفع يده من على وجهه وقال بصوت جاف وهو ينظر لى
دون أى تعبير فى عينيه — لا أستطيع أن أوافق على استقالتك •
لا أملك ذلك • اليوم ، الآن ، صدر قرار بنقلى من الادارة •

ثم ضحك ضحكة قصيرة وقال — لم يوضحوا حتى مكان
النقل • قال المدير العام ان كل شىء سيتضح بعد أن تنتهى
التحقيقات • أتعرف متى تنتهى ؟

— ما الذى يجب أن أتعلمه ؟ ••

سكت ، وكانت الصيحات الرفيعة تعلو وتختلط الى أن
صارت صرخة واحدة متقطعة تتكرر باستمرار •

فنجان قهوة

انتهى بسرعة الغداء المكون من شوربة عدس خفيفة وبصل في الخل • وأخذ الابن الأكبر « سمير » الطالب بالجامعة يضرب الطبق بالمعلقة بصوت رتيب • وانشغل مدحت الابن الأوسط بتكوين كرة صغيرة من فتافيت الخبز ، وراحت ليلي التي بقيت في البيت بعد الاعدادية تداعب شعر « ماجد » الصغير – ولكن ماجد طلب طبقا آخر من العدس • قالت الأم ليلي أن تحضر طبق العدس وحذرتها أن تسرف في الغرف • وعندما جاءت ليلي نصحت الأم لماجد ومنى تقبله أن يأكل « نونو •• نو » •

قال سمير وهو يضرب طبقه بالمعلقة للمرة الأخيرة ان هذا لا يمكن أن يستمر فقالت الأم انها قابلت « سعيد أفندي » بخصوص المعاش فوعده باستعجاله ، وعلى العموم فمعها كارت من محسن ييه •

سأل سمير :

— وعمى حامد ؟

فأوضحت الأم انه معذور هذه الأيام وقد اقترض ليغطي مصاريف جنازة المرحوم . صرخت ليلي فجأة « يا حبيبي يا بابا » ، ورمت رأسها على ذراعها فوق المائدة وراحت تبكي . تمتت الأم بصوت لا يسمع « كفى . كفى » — ولكن أحدا لم يقل شيئا فأصبح بكاء ليلي محرجا وسط الصمت ، وانهت بسرعة ، بينما راح ظهرها يرتجف في ثوبها الأسود الجديد وهي تنهه بصوت خافت .

دق جرس الباب واتضح أنه العم حامد . كان يلبس الجلباب البلدي ومعظما صوفيا ويتكلم برزاة حتى لا يكشف أحد أنه شرب زجاجتي بيرة . دخل غرفة الجلوس حيث كانت صورة كبيرة للمرحوم حولها شريط أسود جلست تحتها الأم وعلى حجرها ماجد وبجوارها ليلي وبقية الأولاد ، وجلس الحاج حامد قبالتهم واضعا يده على فمه حتى لا ينتشر النفس والكحول ثم أشعل سيجارة . قال العم حامد ان سبب تأخيريه أنه كان في دمياط ، وأنه يفكر في ترك تجارة الأخشاب ، وان صحته لم تعد تحتل السفر الكثير ، وانهم لا يجب أن يحزنوا كثيرا لأن من يموت يستريح بينما الحي وحده هو الشقى . وضرب مثلا : ها هو أمامهم مثلا . . من عشرين سنة وهو في

سفر من مصر الى دمياط ومن دمياط الى مصر فماذا أخذ من الدنيا ؟ •• لم يأخذ شيئا من الدنيا بل ركبته الهموم والديون •
ثم لوى ذراعيه ووضع يديه على كتفيه ليصور كيف ركبته الهموم •

تنهدت الأم :

ـ ربنا يعطيك القوة •

فتنهد العم حامد أيضا :

ـ الحمد لله •• الحمد لله على كل حال •

سألت الأم :

ـ وكيف حال أم شوقي وسى شوقي ؟

فقال العم حامد :

ـ والله أم شوقي مريضة وراقدة والا لأنت كل يوم ••
ولكن يعلم الله انها تبكى ليلا ونهارا وتكاد تقتل نفسها حزنا على المرحوم •

قالت الأم انها تعرف أن أم شوقي أخت وحيبة ، ودعت الله ألا يسئ اليها في الحاج أو في شوقي أو الأولاد • ثم التفتت الأم لليلي وقالت لها أن تعد قهوة لعمها حامد •

خرجت ليلي من غرفة الجلوس ثم نادى مدحت بصوت خافت • وفى الصلاة طلبت منه أن يجيء بين وسكر من البقال على الحساب • ورفض مدحت وقال انه ليس خادما لأحد ، ولكن ليلي أقنعتة فى النهاية •

— ماذا تريد أن يقول عم حامد ؟ بعد أن مات المرحوم لم تعد عندهم حتى القهوة ؟

احتقن وجه مدحت ، وصفق الباب وراءه بشدة وهو يخرج •

ذهبت ليلي الى المطبخ وأشعلت (الوابور) • أطلت من باب المطبخ فلم تر أحدا ففتحت نافذة المطبخ الصغيرة وعادت تقف أمام الوابور وقد راح يوشوش حتى ملأت وشوشته المطبخ الخالى • كان هذا الصوت يحزنها دائما ولم تدر لماذا • ووقفت تحديق فى اللهب الأزرق والرغبة فى البكاء تتناوبا من جديد وفكرت : (ما فائدة البكاء على أى حال ؟ • لا يفيد البكاء فى شئ • فى العزاء كانت النسوة يحطن بى بطرحهن السوداء ويقلن « ابكى •• ابكى يا ليلي •• خففى عن قلبك •• ستجنين لو بقيت ساكنة هكذا » وكنت أريد أن أبكى لأتخلص من الحاحهن وليتركنى لنفسى ولكنى لم أستطع • وعندما استطعت أن أبكى لم أشعر انى أحسن • لا فائدة • لا فائدة من شئ • المرة الوحيدة التى بكيت فيها فى

العزاء أتت عندما فكرت في أحمد • شعرت ساعتها أنى خائنة
ومجرمة • لا فائدة • الكل ينسى • حتى أنا أنسى • نعم ، أنا
أيضا خائنة • فى قلب العزاء وبينما كنت أفكر فيك يا أبى فكرت
فى أحمد • ساعتها صرخت « يا حبيبى •• يا بابا يا حبيبى
يا بابا » •• نعم •• نعم •• كان حبيبى عندما رآنى أبكى مرة
أخذنى الى غرفته وقال لى « لماذا تبكى حبيبتى ؟ » وعندما
سكت ضحكك وهمس فى أذنى « بسبب شوقى ؟ » قال أنا أعرف
انك لا تحبينه وأن أمك تشاجرت معك بسببه • بالأمس سكت
لى أمك من انك تقطين فى وجهه وقالت لى أن أكلملك لتعقلى •
قلت « لا أحبه يا بابا » فقال « ولا أنا •• لن تتزوجى شوقى
ما دمت لا تحبينه ، وقطبى فى وجهه كما تريدن • لا تفعلنى
شيئا لا تحبينه » ثم قبلنى وضحك • قال « ولا تدعى أمك
تعرف انى قلت لك هذا » لم يتركنى الا بعد أن ضحكت •
كان يحبنى ، وبرغم كل شىء فيها أنا أنسى أيضا • لا فائدة •
ولكن يا ربى •• لماذا أنسى ؟ •• ولماذا أفكر فى أحمد
وأنا لا أريد أن أفكر فيه ؟ •• لماذا أريد أن أراه ؟ •• لماذا
أشعر بدونه انى ناقصة ؟ •• نعم •• عندما مات أبى نقصت
مرتين •• نقصت عندما مات ونقصت عندما لم أعد أرى أحمد •
وأنا أعلم أن هذا عيب •• انه حرام •• ولكننى لا أستطيع
شيئا •• سامحنى •• سامحنى يا ربى •• سامحنى يا أبى •

كانت تتمم دون صوت « سامحني .. سامحني » ..
عندما سمعت النداء الخافت « ليلي ... ليلي » فاندفعت نحو
النافذة وقد أخذ قلبها فجأة يدق بسرعة • أطلت في كل النوافذ
المجاورة وعندما لم تجد أحدا قالت لأحمد في النافذة المقابلة :

— ماذا ... ماذا تريد ؟

— ليلي ، لا بد أن أراك •

— أنت تراني الآن •

— ولكن من يضمن لم أراك • لن ينفع هذا • لا أرفع
عيني عن نافذة المطبخ •

— أنت تعرف ... تعرف الظروف •

— نعم ، ولكن ما معنى الحب إذا لم نشترك في كل شيء ،
في الحزن والفرح ؟

— وماذا سنعمل ؟

— قابليني الليلة وسنفكر ماذا نعمل •

— مستحيل ، قلت لك لن تتقابل قبل الأربعين •

قال الحاج زكي البقال لمدحت وهو يعطيه لقافة صغيرة من
البن والسكر :

ـ أريدك في كلمتين يا ملحت يا ابني •

ثم اتحنى به في ركن من المحل ، بعيدا عن زحام الزبائن ،
أمام أرفف اللحم المحفوظ في علب عليها صورة رأس بقرة •

في غرفة الجلوس شعر العم حامد بنجل من نفسه لأنه
عرف أن كثرة التدخين لا تقضى على رائحة البيرة وتوهم انه
يرى الاشمزاز في عين سمير فعاد يضع يده على فمه متظاهرا
بالتفكير العميق • وقال بعد صمت طويل وتنهد انه بحث مع
سعيد أفندي كل شيء فاتهيا الى أن المعاش وحده لن يكفي •

قالت الأم انها لا تعرف كم يكون المعاش ، وانها الى أن
مات المرحوم لم تكن تعرف كم المرتب ، اذ لم يكن البيت
ينقصه شيء وكان كل ما تطلبه تجده •

أشعل عم حامد سيجارة جديدة وقال :

ـ هذا هو السبب في أنني أريد أن أكلمك أنت وسمير
أفندي • لقد كان المرتب قليلا في الحقيقة ، ولكنه رحمه الله كان
يعمل جهده لتعيشوا أحسن عيشة •• وأنا لا أدري •• أعنى
أننى أدري أن المعاش لن يكفي لسداد أجرة البيت ولهذا تكلمت
مع سعيد أفندي • ليس غريبا •• سعيد أفندي زميل المرحوم في
المكتب وكان صديقه الروح بالروح •• ولهذا تكلمنا بصراحة •

قال مدحت وهو يشعر بأذنيه تلتهبان بينما يحاول أن
يثبت نظره على رأس البقرة المقطوع حتى لا يبكي :
- يا حاج زكى آل .. آل .. المعاش .. بمجرد صرف
المعاش سندفع الحساب ، ولكن *
قال الحاج زكى وهو يشيح بوجهه عن مدحت ويمسح
عرقه بكم جلبابه :

- يا مدحت يا ابنى أنا لست قليل أصل .. وأتم خيركم
على ولا يمكن أن أنسى جميل المرحوم * من عيني يا ابنى
اتكلم فى هذه الظروف ولكن الله .. والله ما معى شىء ..
حساب الزبائن فى أول كل شهر أدفعه لحساب البضاعة فى أول
كل شهر * بدون هذا لا يمشى الحال * أنظر هذه الفواتير
هذه الكمبيالات ..

قال سمير لعم حامد :

- وزارة الأوقاف ؟ اعانة ؟ هذه شحادة .. كيف تفكر
فى هذا يا عم حامد ؟

- يا سمير يا ابنى ليست هذه شحادة * هذا حقك ؟
هذا حقكم * دعنا نتكلم بالكلام .. أعنى دعنا نشحذ بالفعل ..
أعنى دعنا نتكلم بالعقل .. أتريد أن يجوع أخوتك الصغار ؟

وليلي ألا تلزمها مدرسة ؟ .. أعني ألا يلزمها جهاز ؟ .. لقد أصبحت ليلي عروسة ..

نزل العرق البارد من جبين عم حامد وأخذ يحرك يديه في عصبية وهو يفكر .. لا فائدة .. لا فائدة لقد انكشف .. عرفوا أنه سكران وسوف يحتقرونه .. لكنه قال وهو يضغط على كلماته ويحيل بينهما عينين واسعتين مهتمتين :

ـ ليلي أصبحت عروسة ..

ثم تراجع للوراء محاولاً أن يستعيد نفسه ، ولكن سمير قال في اصرار :

ـ هذه شحاذة ..

لوح عم حامد بيديه في يأس وهو ينظر للأم .. بدأت الأم تبكي وهي تقول :

ـ اسكت .. اسكت يا سمير يا ابني ..

وبدا ماجد الصغير أيضا يبكي مع أمه فراحت الأم تهزه على رجلها دون وعى ولكن سمير قال :

ـ لا ، هذه شحاذة .. اذا كان المعاش ضئيلا فيمكن ، أن أشتغل ..

قال العم حامد دون أن يشعر - تكلمت في هذا أيضا مع سعيد أفندي • بدأ صغير غريب في اذن سمير ولم يعد يسمع الكلام ، بل أخذ يعيث بكم جاكته البيجاما وهو يحنى رأسه كان يفكر بان حياته سوف تنتهى •• تكلم العم حامد مع سعيد أفندي ورتبا كل شئ •• سيشغل في وظيفة صغيرة ولن يصبح معيدا في الجامعة كما كان يحلم • وتذكر فجأة منظر الموظف السمين الأشيب الذى رآه لأول مرة يجلس أمامه في خيمة الامتحانات بالكلية • ساعتها التفت هو الى منيرة وتبادلا الابتسام وهمست منيرة « لا بد أنه يمتحن بالنيابة عن ابنه » وعندما تذكر سمير ذلك شعر بالحزن والخجل ثم كره عم حامد ، وسعيد أفندي ، وأخوته لأنهم أنهوا حياته • أما منيرة فلن ••••



قال أحمد ليلي :

- كوني معقولة •• بعد الأربعين ستكون امتحانات الكلية ولن أستطيع أن أراك •

قالت ليلي :

- اذن بعد الامتحانات •

ـ كيف ؟ .. هذا وقت طويل • لا أستطيع أن أقتظر كل
هذا الوقت • ألا تفهمين ؟ أريد أن أراك •

ـ أنت لا تفكر في أبدا •

ـ ولكن ما معنى هذا ؟

ـ أنت تريد أن تتفسح ولا يهيك شعورى •

ـ أنا • أنا لا أريد أن أتفسح • أريد أن أراك •

ـ اذهب الآن • جرس الباب يدق •

ـ اسمعى • سأنتظرك الليلة • الساعة ٧ نفس المكان •

ـ مستحيل •

ـ وبينما كانت تغلق نافذة المطبخ بسرعة كان يقول
بصوت أعلى :

ـ « سأنتظرك .. سأنتظرك » •

عندما فتحت ليلى الباب قذف مدحت لفافة البن والسكر
على المائدة •

فقلت له « مالك » ؟

صرخ ـ لا شأن لك بى • غورى • اعلى القهوة •

دخل مدحت غرفته وأغلق الباب ونام واضعا الوسادة فوق

رأسه حتى يتظاهر بالنوم لو دخل أحد • لم يكن يريد أن يكلم أحدا ••• « كلهم كلاب » •• يجلسون في البيت مرتاحين ويعثون بي الى البقال والجزار الأموت من الخجل • لماذا لا ينزل سمير مرة ؟ أم أنه (ييه) لأنه في الجامعة ؟ أنا لم أعد صغيرا أيضا •• أأست رجلا ؟ ولماذا يتأخر المعاش ؟ وكم سيكون على أى حال ؟ كان سمير يقول ان المعاش قليل لن يكفى لشيء • وما دام المعاش قليلا فلا بد أن المرتب كان قليلا • اذ كيف كان أبى يدبر أن يعيش هذه المعيشة بمرتب قليل ؟ آه لن أنس ما قاله هذا الكلب في سراق العزاء • الكلب • في سراق العزاء ويقول ••• ولكن لا •• لا لن أفكر في هذا •• « في المدرسة ، في المدرسه ينظر الى الأولاد بعطف • كم أكره هذا •• منير كان يخاصمنى فصالحنى بعد أن مات أبى • كأنه يعطينى حسنة • الكلب • سأخاصمه في أقرب وقت • لا أريد حسنة من أحد • وعمى حامد يبدأ بالشكوى حتى لا يطلب أحد منه شيئا « أريد أن أترك التجارة » أم شوقى مريضة •• ماذا أخذت من الدنيا » •• لماذا يقول هذا الكلام ؟ ومن طلب منه شيئا ؟ أمى تريد أن تزوج لى لشوقى وعمى حامد يتظاهر أنه لا يفهم •• لو كنت أستطيع أن أقول لها كى تكف عن هذا •• ولكن ألم يكن يستطيع أن يأتى الى البيت دون أن يسكر ؟ •• لم يمض شهر على وفاة المرحوم وها هو يأتى الى البيت وهو سكران •• كان يسكر مع المرحوم أيضا ••

لا ، لن أفكر في هذا .. لن أفكر .. سوف أقرأ الفاتحة
 خمسين مرة حتى أنام بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله ..
 أبى كان يصلى أيضا ، سوف يغفر الله له أنه كان يسكر ولكن
 هل يغفر الله له أنه كان يسرق ؟ ماذا ؟ ما الذى يجعلنى أفكر فى
 هذا ؟ سامحنى يا أبى .. سامحنى .. سامحنى .. ولكن
 لا أستطيع أن أنسى .. لا أستطيع أن أنسى هذا الكلب الأصلع
 فى سرادق العزاء .. لم يكن يظن أننى أسمع ولكنى سمعت ..
 يضع يده على فمه ويهمس لجاره النحيل « المرحوم يعنى كانت
 يده طويلة حبتين ولكن ربنا غفور رحيم » والنحيل الكلب يضع
 يده على فمه هو الآخر ويهز رأسه وكأنه متأثر .. كلاب .. كانوا
 يكرهون أبى ، هذا كل ما فى الأمر ... » بسم الله الرحمن
 الرحيم .. الحمد لله رب العالمين .. الرحمن الرحيم .. مالك
 يوم الدين .. اياك ... كان المرتب قليلا وكنا نعيش مرتاحين
 فكيف ؟ لم تكن نملك أرضا .. لم يكن عندنا شيء .. ربما كان
 أبى يقوم بعمل آخر .. أى عمل ؟ .. لم يكن هناك عمل آخر ..
 ولكن سامحنى يا أبى لم أقصد .. كان أبى يصلى .. لا ، لن
 أبقى هكذا .. الشيطان .. الشيطان يضع فى رأسى هذه
 الأفكار ..

قام مدحت فجأة والدموع فى عينيه .. مسحها بسرعة ودخل
 الى غرفة الجلوس وجلس بجوار سمير وكان عم حامد يقول :
 - الزواج سترة ..

وكانت أمه تقول :

— نعم بالطبع • أنت الآن والدها ، لا أحد يقول شيئا
ولكن .. هل هذا وقت التفكير في الزواج ؟

— يا ست أم سмир هل نحن تكلمنا الآن عن الفرح ؟
هل أنا لا سمح الله لا أعرف الأصول ؟ .. ولكن هذا كلام
بيننا لا يسمعه غريب • والكلام يجر الكلام • نحن تفكر في
المصلحة ماذا نريد غير المصلحة ؟ .. ومن يدري ؟ .. ربما كان
هذا عوضا من عند الله • والرجل ليس متعجلا — يمكن أن
ينتظر شهرا .. شهرين .. ثلاثة .. سنة حتى لو أحببتم •

وعندما قال العبارة الأخيرة لوح يديه وعيناه المحمرتان
مفتوحتان على آخرهما ليصور استعداد الرجل للتضحية •
وأنصت ملحت باتباه ليفهم والتفت الى سмир ولكن سмир كان
يهز رجليه في عصبية ويبدو شاردا وعندما طال الصمت قال
العم حامد :

— وأنا الذي ظننت أن هذا الخبر سيريحك •

فقال سмир بعد أن تنحى :

— يا عم حامد .. أنت تشكر بالطبع ، ولكن الحقيقة ..

— ما الحقيقة ؟

— الحقيقة أنه في سن والدها ..

فقال العم حامد :

— من ؟ سعيد أفندي ؟

صرخ مدحت :

— سعيد أفندي ♦♦♦

فقال سمير :

— أسكت أنت ♦♦

ومضى العم حامد دون أن ينتبه لمقاطعة مدحت ♦

— سعيد أفندي أصغر مني بعشر سنوات. على الأقل ♦

يمين بالله خمس عشرة سنة على الأقل ، وليلى ♦♦

صرخ مدحت :

— لا تقسم ♦♦ سعيد أفندي عنده خمسون سنة على

الأقل ♦

كانت أمه تقول : « أسكت يا مدحت » وسمير يقول

« احرص يا ولد » ♦

ولكن مدحت راح يصرخ :

— خمسون سنة وتريد أن تزوجه لليلى ؟ هذا بيع

وليس زواجا ♦

قال العم حامد :

— الله يسامحك ..

فقال مدحت وهو يبكي :

— ولا تتكلم عن الله أيضا .. أنت لا تعرف الله ..
أنت لا يهمك شيء .. أنت .. أنت أتيت الى البيت وأنت سكران
وتريد أن تزوج ليلي من سعيد أفندي لأنك .. لأنك تريد أن
تتخلص منا و ...

وانتهى الصراخ بأن قام سمير وصفع مدحت على وجهه
فاندفع مدحت خارج الغرفة وهو يبكي ويصرخ : « لماذا
تخافون منه ؟ .. لماذا ؟ .. كلاب .. كلكم .. كلكم »
وأراد سمير أن يخرج وراءه ويضربه من جديد ولكن العم حامد
قام وهو يتسهم ابتسامه واسعة وأمسك سمير من يده وقال له :

— أقعد .. أقعد يا سمير يا ابني لا تغضب .. صغير ..
مدحت كابني « علاء » تماما .. هل أغضب من علاء ؟ ..
الانسان لا يغضب من ابنه الصغير ..

فجلس سمير وهو يقول :

— حقاك على يا عم حامد ..

فقال العم :

— لا شيء .. لا شيء .. فلنعد للكلام المفيد .

وعاد العم حامد يتكلم من جديد . كان هجوم مدحت قد حرره من الحرص والذنب فراح يتكلم بسرعة وحماس عن الحياة والموت ، عن المعاش والمعيد أفندى .. ولكنه سكت عندما دخلت ليلي غرفة الجلوس . كانت تتقدم بثوبها الأسود في بطء وحرص حتى لا تنسكب القهوة وقد ثبتت نظرتها على وردة كبيرة جبراء مرسومة في الصينية التي تحملها ، ولكنها رفعت رأسها عندما قال ماجد : « ليلي » .

التفتت وهي تبتسم وكانت أمه تحيط وسطه بذراعيها المتشاحتين بالسواد ولكنه ضرب يديه الصغيرتين في الهواء وقال :

— ليلي . سمير ضرب مدحت . وعمى حامد قال مدحت ابني . مدحت وعلاء أولاد عمى حامد ..

نصيحة من شاب عاقل

جرب العجوز خلفه وهو يعبر شارع « طلعت حرب » عند
سينما راديو وناداه بصوت مرتفع « يا أستاذ عادل ! » • سمع
صرير سيارة جاهد سائقها ليوقفها فجأة ثم راح يلعن الرجل
العجوز الذى لم يهتم به وأدرك صاحبه قبل أن يصل الرصيف
وأمسك ذراعه بأصابع رفيعة متشبثة ، تبادلوا النظر دون كلام
لفترة ثم نحى عادل يده عن ذراعه وسأله عما يريد •

قال العجوز - أنا يا أستاذ عادل • أنا • ألا تذكرنى ؟ • •
كنت تشتري منى الأهرام كل صباح والكواكب كل أسبوع •
كنت أقف فى ركن شارعكم • خليل • • عمك خليل •

قال عادل - وأنت ألا تذكر ؟ تقابلنا هنا كثيرا • تقابلنا
من أسبوع واحد ونصحتك ، ألا تذكر ؟ يظهر أنه لا فائدة •

بدأ يمشى بخطوات بطيئة - وعم خليل يتابعه • يتخلف عنه خطوة باستمرار ليمس ذراعه وهو يتكلم • قال بسرعة - آه يا سعادة البية ، تذكرت ، تذكرت • ولكن أنت لا تعرف • أنا الحمد لله تغيرت • أرجوك أن تستمع الى • أنا تغيرت خالص • والله العظيم والله العظيم لم أعد أعرف الأفيون أبدا • لم أعد أعرف شكله ولا طعمه • داهية تحرقه •

وقف عادل مرة ثانية فواجهه العجوز النحيل بعينين تغطيها غشاوة • كانت عيناه أيضا تفرزان دموعا صغيرة لا يلاحظها وكان يمسح شفتيه بلسانه باستمرار •

قال عادل - حكيت لى هذا المرة التى فاتت • قلت لك امتنعت عنه وتريد عملا • لماذا لم تعمل ؟ نكس عم خليل رأسه فى الأرض فبدت رأسه بشعرها الأشيب ضئيلة بين كتفى الجاكطة الرمادية الواسعة اللامعين بسواد القذارة ثم رفع رأسه على الفور وقال - كيف صحة الحاج ؟ والد حضرتك ؟

ضحك عادل ضحكة صغيرة وقال - بخير •

ثم عاد يمشى من جديد فتابعه عم خليل وهو يقول :

- فاس أمراء •

وبعد صمت طويل قال بصوت ضعيف - تعرف الحقيقة
يا سعادة البيه ؟ أنا الآن تحت العلاج • أصل الكيف خرب
صدرى الله يحرق الأفيون ويومه • أصل سعادتك لا تعرف •
هل تذكر عمك خليل أيام زمان ؟ والله يا بيه ما كنت أعرف غير
شغلى وبيتى • فنجان القهوة كنت أبخل به على نفسى وأقول
البيت أولى بالقرش • الحكاية ناس ضحكوا على ناس • قالوا
لى الأفيون يشفى من الروماتيزم فعلقت فيه وخرب بيتى • كمان
هم البيت والعيال • خمسة أولاد وأمهم والقرش ضنين • حمل
ثقل على عمك خليل • • يعنى يا بيه بنى آدم لما الهم يزيد
عليه • • لكن الحمد لله هذا كان زمان • زمان وانتهى • الحمد لله
ربنا نجانى وسأرجع للعمل بعد أن أعالج صدرى • أرجوا
لو سمحت أن تساعدنى - وسأردها لك عندما • • عندما • •
توقف فجأة ثم بدأ يسعل سعالاً شديداً ويده على فمه ،
وأبطأ عادل سيره وهو يدير رأسه قليلاً نحو المعجوز الواقف
يرتجف بسعاله حتى كاد يختفى عن بصره فى الزحام • لكن
الرجل أسرع يلحق به قبل أن يتعد وقال بصوت لاهث تقطعه
سعالات قصيرة :

- لا • • لا أستطيع أن أعمل قبل أن أعالج صدرى • •
يعنى مساعدة • • مساعدة بسيطة • • لو سمحت • • وسأردها
لك •

قال عادل بهدوء دون أن يلتفت اليه - أنت تكذب يا عم خليل • أنت لا تريد أن تعالج صدرك ولا غيره وانما تريد أن تشتري الهباب • كم مرة نصحتك ، وفي المرة التي فأت أعطيتك بريزة أليس كذلك ؟ ماذا فعلت بها ؟ صرفتها على الكيف أليس كذلك ؟

قال عم خليل محتجاً - بريزة ؟ والله يا بيه البريزة لا تشتري أى ••• وأنا قلت لك الكيف كان زمان والله • الآن لا يمكن • سعادتك تعال معى ان أردت أن •••

وقف الشاب فى الطريق وقال بلهجة حاسمة نافذة الصبر - اسمع • عندى كلمة واحدة • يجب أن تعالج نفسك • ادخل مضلحة لبعالجوك • ان أردت واسطة فلى صديق طيب وهو يستطيع •••

مد العجوز يده فأمسك بذراع عادل مرة أخرى وقال بسرعة :

- هيا بنا • الآن • رجلى على رجلك • الله يعمر بيتك • هيا بنا الآن الى صاحبك الدكتور •••

أخذ عادل يتطلع فى حيرة الى الرجل العجوز المرتجف الذى يمسك بذراعه وهو يفكر فى شىء يقوله ولكن عم خليل بادره قبل أن يتسكلم - ولكن يا بيه يعنى قبل أن نذهب للدكتور

أرى أولادى أولا • يجب أن أرى أولادى وأدير أمورهم •
 • ساكنين يا ييه • من أين يأكلون لو دخلت المصحة ؟ يعنى
 سؤال • يعنى لا مؤاخذه أمهم تسرح وتبيع روحها ؟ يرضيك
 يا ييه ؟ يرضيك ؟ • أنا • أنا أصلى لم أقل لك • أنا فى
 الحقيقة دخلت مصحة • يعنى عالجت نفسى وشفيت والحمد لله •

المسألة الآن صدرى والكحة • أريد أذ، أذهب للدكتور
 ليرى صدرى أقصد يعنى بالأشعة • أرجوك أن تساعدنى
 يا ييه • حق الدكتور فقط •

كان يقفان أمام سينما ميامى فى نقطة مزدحمة من الشارع
 والناس يدفعانها قليلا ليعبروا الزحام • ووجد عادل نفسه أمام
 صور الفيلم المعروف فاكشف انه يتطلع من مدة الى صورة
 البطلة الجميلة وهى تستلقى على سرير محلولة الشعر وثوبها
 ينحسر عن فخذيها المرفوعين وانه لا يكاد يسمع شيئا مما يقوله
 عم خليل • وعندما تذكره نحى ذراعه وقال •

— هى كلمة واحدة • لا تحاول •

وحين عاد السير قال العجوز وهو يضحك ضحكات قصيرة
 ويهز رأسه كمن اكتشف سرا • أنا أفهم يا ييه • أنت قلبك على
 عمك خليل ، ولكن كما قلت لك ، أنا وجدت عملا والحمد لله •

سأفتح كشك جرائد وأعود كما كنت • سأعود أحسن مما كنت
بإذن الله (ثم أضاف بصوت خفيض) المسألة الآن باختصار
والأمر لله انه لا توجد لقمة في البيت • ساعدنى لو سمحت •
يكفينى حق الأكل للأولاد •

قال عادل بعصية — أنت يهيك أولادك أنت ؟ • أنت
لا يهيك الا الزفت الأفيون •

قال العجوز — حتى الأفيونجى بنى آدم يا سعادة البيه •
أنا أيضا أحب أولادى •

قال عادل — أبدا • • لا يمكن • الانسان الذى يترك شغله
وبيته من أجل ال • • كم مرة قلت لك ؟ • • أنظر الى • أنا
مهندس • أعمل بالنهار وبالليل • فى الحكومة وفى شركة •
أهلك نفسى من أجل أن أجمع القرش • لماذا ؟ • • هل اشتريت
سيارة مثلا لأريح نفسى من المواصلات على الأقل ؟ أبدا •
كل بليم أكسبه أدخره لأحمى مستقبل ابنى • صحيح أنه ما زال
فى الحضانة ولكن لابد أن يعمل الانسان حساب المستقبل
يا عم خليل • ومن يدري ربما يأتى غيره • لابد أن يطمئن
الانسان للمستقبل ثم يلتفت بعد ذلك لنفسه • لماذا لا تتعظ
يا عم خليل ؟ أنظر الى الناس من حولك • أنظر الى أنا نفسى •

كان العجوز يستمع اليه ويهز رأسه مؤمنا على كلامه ولكن عينية الزائفتين تكشفان أنه لا يتابع الحديث • وعندما انتهى المهندس قال له - تمام يا أفندم الحمد لله • كما قلت لك ربنا شفاني (ثم ضحك ضحكة صغيرة مفاجئة) كنت صغيرا هكذا وكنت تأتى لتشتري الجرنال لبابا • عسى خليل ! الأهرام ! أتذكر ؟ •• ثم وقف مرة أخرى وأمسك يد المهندس وقال :

- ارحمنى يا بيه •• أبوس ايدك •

خلص المهندس يده بسرعة وقال - هذا الكلام شبعنا منه • ثم بدأ يمشى بسرعة والعجوز يعدو وراءه تقرينا وهو يقول : - أى مساعدة يا بيه • أى شىء •

- ارجع الأولادك وأعقل •

- سوف أعقل يا بيه • سأفعل كل ما تقوله والله • سيادتك تريد أن أضع الأولاد فى الحضانة أليس كذلك ؟ سأفعل •• سأفعل • ولكن تلزمنى مساعدة ، ولكن •••

مد العجوز يده من جديد وأمسك ذراع المهندس وأوقفه بالقوة تقريبا ، وقرب وجهه منه • كانت عيناه الآن تدمعان باستمرار وعضلات وجهه تختلج اختلاجات سريعة. ثم قال بهمس :

— اسمع • لا داعى لأن نضحك على بعض • لا تخجل
من عمك خليل • أنت رجل جدع وأنا أحب أن أخدمك •
اسمع ولا تقل شيئاً • بينى وبينك يعنى أنا أعرف امرأة جميلة
كالورد • هس • لا تتكلم • تمتع بشبابك وملعون أبو الدنيا ،
كالورد والله • مسافة السكة وتكون عندك • لا تقل شيئاً •
عمك خليل يريد أن يخدمك • قال المهندس — أنت جنت
يا رجل ؟

فقال العجوز — اسمع • أنا أعرفك • من يومك وأنت
ابن حظ • رأيتك مرات كثيرة مع بنات ولم أتكلم • أنظر •
عمك خليل لا يفتح فمه أبداً • هس •

وضع العجوز أصبعه على فمه ثم مسح عينيه بظهر يده
فبقى خده الضامر مبتلاً وأخذ يضحك ضحكات صغيرة متقطعة
وهو يتكلم بسرعة وهمس :

— أنا لا افتح فمى ولكننى أحب الجدعان • لا أريد منك
شيئاً أبداً • حق التاكسى ومسافة السكة تكون عندك •
أنت لم تقل لعمك خليل كلمة واحدة حلوة ولكن لا يهم •
ماذا يهم ؟ أنت يعنى مثل ابنى •• يعنى أنا لا أعمل هذا من

أجل مخلوق ، ولكن ان أردت أن تساعد عمك خليل ، أو يعنى
أنظر • حق التاكسى فقط • اسمع • ان كنت لا تصدق فخذ
بطاقتى حتى أعود •

بدأ يفتش بيده المرتعشة في جيب الجاكتة الداخلى ،
وبدأت دموع جديدة تتسرب من عينيه فقال له المهندس .

ـ أنت وصلت لهذه الدرجة ؟ أنت الموت أحسن لك •

ثم تركه ومشى بسرعة وهو يكاد يعدو تقريبا • وبقي
المعجوز الذى نجح في اخراج بطاقته واقفا مكانه وهو يلوح له
بالبطاقة ويقول :

ـ تعال يا ييه • أنت لم تفهمنى • أنت لم تفهم •

وحين رآه يعبر الشارع مرة أخرى اندفع يجرى
وراءه ـ وحين صرخت الفرامل وصدمة الشيء الثقيل في الطريق
سقط المعجوز على الأرض ، لكنه نهض بجذعه كله مرة واحدة
دون أن يرفع ساقيه وقال « آه » قبل أن يسقط من جديد
مفرد الذراعين وتنفلت البطاقة بجانبه على الأرض •

كان ذلك بعد الغروب • في الضوء الأخير قبل ان يهبط
الظلام • خرج سائق السيارة مذعورا يتطلع للرجل الأشيب

المفتوح العينين وتجمعت دائرة داكنة من المارة حول السيارة البيضاء ، قال أحدهم « رأيتك يكلم رجلا منذ قليل » ، وقال آخر « نعم » ، شاب ، ورأيتك يعبر الطريق • ولكنهم عندما فتشوا عن هذا الشاب بأعينهم لم يجدوه •

كان هو أيضا قد شاهد الحادث واندفع ليعود ويرى ما جرى • لكنه ترقف فجأة وقال لنفسه (سيأخذونني شاهدا ويعطلونني بلا فائدة • وأنا تأخرت بالفعل عن موعد الشركة) ثم دخل مسرعا في الممر الذي صادفه • وبعد ان ابتعد توقف مرة ثانية وقرر أن يعود لكن قال لنفسه (ان كان قد جرح فسوف يعالجونه وربما يحصل على تعويض • وان كان قد مات فلا فائدة • ربما يحصل أولاده على تعويض ينفعهم) • كان قلبه يدق بسرعة ، لكنه مشى بسرعة ولم يرجع •

وهناك انحنى أحدهم والتقط بطاقة الرجل العجوز • أخذ يقلبها وقرأ اسمه واسماء أولاده قبل أن يعطيها للشرطي الذي كان يستمع صامتا للسائق وهو يشرح مشيرا بيديه الى صدره وملوحا للرجل الميت دون أن ينظر اليه •

فهرس

- بالأمس حلمت بك ٧
- سندس ٤٥
- النافذة ٥٥
- فنجان قهوة ٨٣
- نصيحة من شاب عاقل ١٠١

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٦٠٣ / ٨ / ١٩٩٩

I.S.B.N 977 - 01 - 6152 - 7



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر في تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل
.. للشباب.. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية وما زال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاظم وما زلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد
بأن مصر كانت وما زالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع
والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك